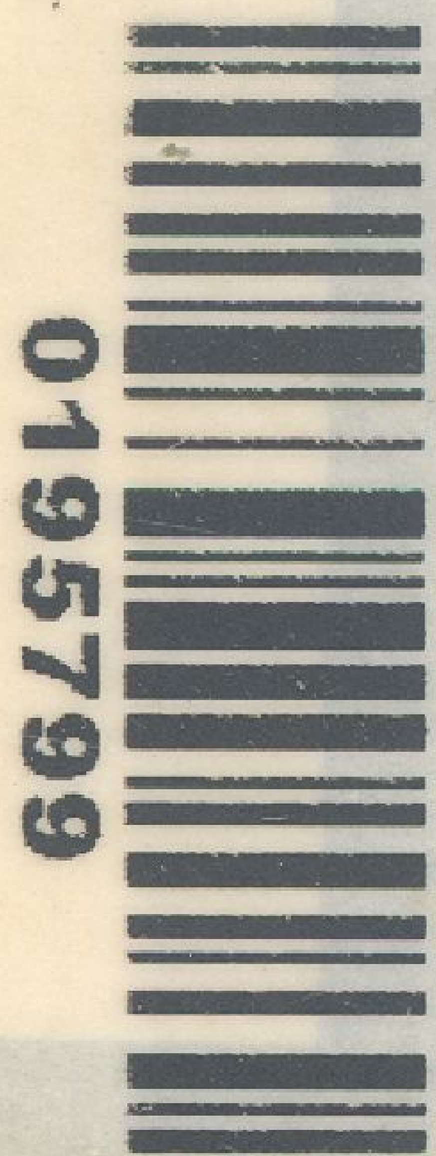
كتب ثقافية

# عاصفة من أفريقيا

## قصة هانيبال، بطل قرطاجنة

بقلم هارولد لام

ترجمة شفيق أسعد فريد



الأستاذ الدكتور
عبد العزيز برهام
رئيس قسم اللغة العربية
الأسبوع
الاسكندرية

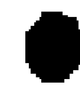
# عاصفة من أفريقيا

## قصة هانيبال بطل قرطاجنة

بقلم هــــارولد لام
ترجمة شفيق أسعد فريد

# الفصل الأول

## التقهقر من البحر



تجاوز هانيبال مرحلة الطفولة وهو لا يرى أمامه شيئاً غير البحر لأن أسرته أقامت فوق قمة جبل ايرايكس حتى بلغ الخامسة من عمره . وكان هذا الجبل أشبه ببرج مراقبة يبرز من أعماق الماء بجوار خليج ضحل يشبه نصف قمر ، ويشرف على مدينة صغيرة مشيدة بجوار الخليج ويلتف حولها سور مرتفع ، إلا أنه لم يكن فى استطاعة هانيبال أن يزور هذه المدينة لقيام حالة الحرب بينها وبين سكان الجبل . .

وهكذا ازدحمت ذكريات بيئته الأولى بمعسكر منسلح ؛ ومع أن سكان هذا المعسكر لم يكونوا يحملون أسلحة فى غدوهم ورواحهم إلا أنهم كانوا لا يكفون عن إصلاح أكواخهم التى صنعت سقوفها من أعواد القصب الجافة كلما أمطرت السماء ، أو مراقبة نسائهم

ومن ينظمن قطع النقود الفضية فى عقود يخزنها لوقت الضيق . وكان الأسرى يزرعون الشعير ، بينما تولى أولادهم مراقبة قطعان الماعز التى ترعى حتى يحين وقت نحرها . .

وهكذا نشأ هانيبال فى بيئة يحف بها العدو : ولكن خطورة انحدار الجبال أتاحت للمجتمع الذى يحكمه هاملكار بارسا أن يعيش فى أمان

وعندما بدأ الطعام فى التناقص أخذ هانيبال يسمع وقع أقدام الرجال لابسى الخوذات وحاملى الدروع ، وهم يهبطون الممرات الجبلية فى فصائل.. كانوا يقومون برحلاتهم عند غروب الشمس ، ويعودون ـ متخذين من الظلام ستاراً يحميهم ـ وهم يقودون أمامهم حميراً وأسرى محملين بالنبيذ وأوانى القمح ، وفى بعض الأحايين كانوا يسوقون أمامهم ماشية اغتصبوها من الوادى . . ونظراً لأن هانيبال كان يحرص على رؤية هذه الفصائل عند رحيلها وعودتها ، فإنه لم ير أن هناك وجهاً للغرابة فى أن يتكلم هؤلاء الرجال لغات متباينة ـ ذلك لأنهم كانوا جنوداً مرتزقة ينتمون إلى عشرات الجزر الساحلية . . ولكن هؤلاء الرجال مالبثوا أن تعودوا على التحدث باللغتين الأفريقية واليونانية اللتين كان

سكان المعسكر يتكلمونهما ، وسرعان ماتعلم الغلام الصغير هذه اللغات . وكان الجنود المرتزقة يتوقفون عن العمل من حين لآخر ويلتفون حول الابن الأكبر لمولاهم هاملكار ليشرحوا له مايخفى من الأمور ، ولعل أكثر الانطباعات تأثيراً فى نفس الغلام هى تلك التى حصل عليها من ليبى عملاق كان يزين أذنه بقرط كبير . .

كان هاملكار رجلا فذاً استطاع أن يجمع حوله خليطاً من رجال متباينى الطباع والمزاج بينهم عدد من الرومان الذين وقعوا فى الأسر ، أو فروا من جيش بلادهم . ولم يبخل هاملكار على هؤلاء الأسرى بحق الزواج والحصول على أجر معقول والعيش تحت سقف ، وبذلك استطاع أن يظفر بتأييدهم وخدمتهم .

وهكذا تعلم هانيبال الخشونة وتعود على احتمال المكاره من بيئته الأولى ، كما تعلم التنبؤ بحالة الطقس وقراءة ما تحمله الرياح والعواصف من نذر .

وكان هاملكار ومن معه من القرطاجنيين يتطلعون دائماً ناحية الشرق حيث يوجد وطنهم الأصـــلى ؛ وطن آبائهم وأجدادهم الفينيقيين الأوائل الذى كان يعرف باسم الأراضى الحمراء ، ومنه هاجروا إلى أراضى كنعان وشاطىء البحر المتوسط الخصيب .

وكان سكان الأراضى الحمراء يعتمدون على البحر فى حياتهم ، ولكن هذا الاعتماد لم يقتصر على مصائد السمك الموجودة بالقرب من الشواطىء ولا على الصبغة الارجوانية التى كانوا يستخلصونها من الأصداف ، وإنما كانوا يحصلون على عيشهم من نقل التجارة عبر البحار فى سفن من صنعهم .

ولقد أنشأ الفينيقيون الأوائل مدناً قوية على الجزر الحجرية القريبة من الشاطىء ، وكانت أقوى مدينة لهم هى التى أنشأوها على جزيرة تاير . . ومن أعماق القارة أحضر تجار جزيرة تاير المواد الأولية فى قوافل كانت تجىء من دمشق وجدة وسبأ وايدوم ومصر حيث يتولى الصناع المهرة تحويلها إلى سلع دقيقة

ولم يكن شاطىء جزيرة تاير الصخرى يشتمل على أية موارد يستمد السكان طعامهم منها ، ولهذا لجأوا إلى زراعة الأراضى الخصبة المجاورة . وكانوا يقيمون فى أبنية عالية مكونة من شقق كثيرة ، ولولا أن تعدادهم لم يكن ليزيد على ٢٥٫٠٠٠ نسمة ..

ولقد قال سترابو إن « ثراء تاير كان وليد مهارة سكانها » ، وكانت هذه المهارة مركزة فى قدرة الفينيقيين على نقل التجارة ، ومقايضة السلع المصنوعة بالمواد الخام والعكس بالعكس .

وفى أيام الملك حيرام أنشأ الفينيقيون أسطولا لسليمان ملك إسرائيل فى البحر الأحمر من خشب استمدوه من أشجار الصنوبر المستقيمة بلبنان ، وأوتاد من حديد طوروس ، وأشرعة من الكتان المصرى . وحصلوا مقابل ذلك على ذهب مستخرج من مناجم أوفير ، كما قدم حيرام أيضاً الخشب اللازم للمعبد الذى بناه سليمان .

كان الفينيقيون أول شعب ، ولعلهم آخر شعب أيضاً ، أقام ثقافته على تجارته . ولهذا كان لابد أن يعمهم الرخاء فى أوقات السلام أى الفترات التى تتوسط مراحل الفراغ والغزو . وكان جيش سنحاريب واحداً من جيوش كثيرة ضربت الحصار حول القلعة التى أنشأها الفينيقيون على شاطىء جزيرتهم تاير ، وعندما استسلمت هذه المدينة الأم للفرس فى عام ٥٣٨ - أى حوالى ثلاثة قرون قبل أن يلوذ هاملكار بقاعته الجبلية ضد الرومان - استطاع الفينيقيون أن يحصلوا على عيشهم بالعمـــل فى النقل البحرى لملوك الفرس العظام . وظلت منشآت تاير بموانيها الصناعية قائمة بغير أن يطرأ عليها أى تغيير ، ولعل ثراءها ازداد فعلا تحت حكم امبراطورية فارس : إلا أن شعبها أصبح رعايا لايستطيع أن يتابع مصيره فى البحر كما يهوى .

ولكن شعب فينيقية كان شعبا طموحاً ، فبنى السفن الكبرى ، وأوغل فى مياه المحيط بحثاً عن المناطق البعيدة بدلا من الاكتفاء بالجزر القريبة من الشاطىء . واستطاع الفلاحون الفينيقيون أن يضللوا أساطيل كريت والإغريق ويكتشفوا منطقة شبيهة بجزيرة تاير نفسها على ساحل أفـــريقيا حيث يحف بها وادى خصيب وتحميها الصخور من ناحية البحر ، فأنشأوا بها مدينة قرطاجنة ..

وهكذا تشبع دم أسلاف هانيبال بالبحر

وأراد الفينيقيون التخلص من منافسة الدول الأخرى ، فلجأوا إلى ترديد قصص وأساطير مفزعة عن العواصف والأنواء القاتلة التى تسود البحار العميقة .

وظل سكان قرطاجنة على ولائهم لوطنهم ، فكانوا يبعثون بالهدايا إلى آلهة جزيرة تاير برغم أنهم انشأوا معابد جديدة لهذه الآلهة فى وطنهم الجديد قرطاجنة .

* * *

لنعد الآن إلى هاملكار . .

كان هاملكار رجلا باسلا ينتمى إلى أسرة عريقة من أسر

جزيرة تابر ، ولهذا أقبل عليه الجنود المرتزقة من كل حدب وصوب وعرضوا عليه خدماتهم . .

ورأى هاملكار اتباع السياسة التى انتهجتها قرطاجنة وهى سياسة الانطلاق غربا للبحث عن مصادر الثروة فى بلاد البربر ؛ وكان السبب فى ذلك ماتبين له — بعد احتلال جيوش روما لجزيرة صقلية — من أن فى استطاعته المضى فى محاربة هــذه الجيوش بغير أن يكلف خزانة قرطاجنة اعباء جديدة بعد أن اثقلتها اعباء الحروب السابقة . ولذلك لاذ بجبل ايرايكس مع آلاف عديدة من جنوده الذين كان يدفع لهم مرتباتهم من ماله الخاص .

وهكذا احتفظ هاملكار برأس الجسر فى جبل ايرايكس بعد أن اطمأن إلى أنه من المستحيل أن تهاجمه جيوش روما لمناعة الجبل .

***

لقد أحسن مجلس قرطاجنة صنعاً حينما اختار رجلا لايعرف معنى الاستسلام ليكون محدث قرطاجنة الرسمى فى مفاوضات

الصلح مع العدو اللاتيني الذى انهكه الاعياء بدوره . وكان هذا المجلس يتكون من كهول ينتمون إلى أسر عريضة الثراء ، لهم تقاليدهم وخصوماتهم ، ولما كانت أغلبية أعضاء المجلس من أسر تناصب أسرة بارسا العداء ، فقد قررت هذه الأغلبية الدخول فى مفاوضات الصلح مع تلك الدولة النائية التى أطلقت على نفسها جمهورية الرومان الشعبية . وكانت الأغلبية ترى أنه إذا أفلح هاملكار بارسا فى الحصول على شروط حسنة من العدو فبها ونعمت ، أما إذا فشل فى ذلك فسيؤدى ذلك إلى الانتقاص من هيبة أسرة بارسا التى يكرهونها .

ولم يشهد الغلام هانيبال غير نهاية النضال حينما رأى مئات من الأشرعة تتحرك مقبلة من الأفق الغربى ، فتسمح لها سفن الحراسة الرومانية بالمرور . وكانت السفن المقبلة تشكل الأسطول الذى أرسلته قرطاجنة لنقل حامية جبل ايرايكس .

وهكذا أبحرت حامية هاملكار عائدة إلى قرطاجنة بعد انقضاء ثلاثة أعوام عليها وهى رابضة فى معقلها . . وختمت بذلك معاهدة الصلح التي وقعت مع روما .

وقد ظلت ذكرى هذه الأعوام الثلاثة بما تخللها من متاعب عالقة بذهن الصبي هانيبال حتى بعد أن انتقلت أسرته إلى قصر منيف بقرطاجنة .

ملكة البحر :

كان عمر المدينة الجديدة خمسة قرون فى ذلك العهد . وفى الأصل اتخذ الفينقيون منها مرفأ مؤقتاً لسفنهم الذاهبة إلى أسبانيا نظراً لوجود طرف ضيق لشبه الجزيرة فى قلب خليج تونس ، وسرعان ما أنشأ الفينقيون مرفأ خلف المول الحجرى الذى يبلغ ارتفاعه ٤٠٠ قدم .

وحفر الفينقيون مرفأ داخلياً لسفن الحربية يتسع لمائتى سفينة وانشأوا على حافته مبنى للاميرالية ، بأعلاه قبة عالية شبيهة بفاروس لمراقبة المياة الخارجية ، واعطاء الأشارات . وخلف المبنى ، أنشأ القرطاجنيون مخازن الخشب والأساحة ومهمات الحرب : ورغم أن قرطاجنة لم تكن تملك فى ذلك الحين الأسطول الذى كانت تملكه عندما كانت ملكة البحر الغربى ، إلا أنها كانت تختزن المواد الكافية لإنشاء أسطول كبير ، وقد أنشيء جدار

خارجى لمنع المتطفلين من التلصص والتجسس على الأسرار التى تحتفظ الدولة بها داخل هذا الجدار .

وكانت هناك ساحة عريضة تؤدى إلى قلعة بايرسا القديمة التى شيدت على ربوة ارتفاعها حوالى ٢٠٠ قدم ، لا يكاد حجمها يبلغ نصف حجم منطقة الأكروبوليس فى أثينا . وقد خصصت هذه القلعة لتكون معابد للآلهة . . ولما كانت شروط الصلح التى أبرمت مع روما حظرت على القرطاجنيين إنشاء مصانع جديدة ، فقد عمد هؤلاء إلى زيادة عدد طوابق المصانع وحشدوا العمال والصناع فى الطريق الجديد .

ومن وراء بايرسا امتد الطريق العظيم مسافة سبعة أميال تقريبا عبر شبه الجزيرة تحف به الحدائق الغناء والمقابر الفاخرة من ناحية ، بينما أنشئت على الناحية الأخرى منازل الأسر الكبيرة التى جمعت ثر.تها من التجارة ، وكان بعض هذه الأسر ، كأسرتى ماجو وهانو الارستقراطيتين تتمع بالجاة والسلطان منذ أجيال طويلة .

أما سكان المدينة فكانوا فى ذلك العهد خليطا من الفينيقيين

والنوميديين والسودانيين والليبيين واليونانيين وبعض الرومانيين الذى فروا من جيوش روما .

والواقع أن شوارع قرطاجنة الكبرى أصبحت بمثابة شرايين القارة الأفريقية ، إذ كانت منتجات القارة تأتى عن طريقها إلى مدينة قرطاجنة ثم تشحن فى السفن إلى مختلف موانىء البحر الأبيض .

وكانت لقرطاجنة خاصية أخرى ، وتلك أنها ظلت حرة دائما أما تاير فاستسلمت للكلدانيين أولا ، ثم للفـــرس بعد ذلك . إلى أن اكتسحها الاسكندر الاكبر بجيوشه ، فهرب كثير من الكهول والنساء والأطفال إلى وطنهم الجديد فى عام ٣٣٢ .

ومن عجب أنه لم يكن يوجد سور دفاع حول قرطاجنة ، لأن الحاجة لم تدع لانشاء مثل هذا السور نظراً لأن البحر كان يحمى المدينة من هجمات المغيرين عليها .

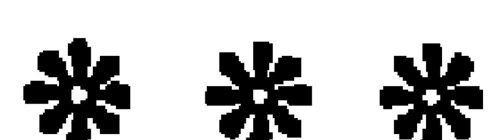
ولقد انتقل هانيبال إلى هذا الوسط الجديد مع أبيه القائد حيث قضى أعواما طويلة مع أخويه الطفلين فكان أحد القراء ينشد لهم أشعار البطولة ويسرد عليهم قصص الأبطال .

واتفق أن نشبت ثورة بين القبائل التى تحف بقرطاجنة

فيما بين عامى ٢٤١ - ٢٣٨ ولم تلبث هذه الثورة أن تحولت إلى حرب أهلية هددت المدينة بالخطر ، فسارع مجلس المدينة باعفاء أسرة هانو من الحكم ، واستدعى هاملكار بارسا لتولى القيادة .

وسحق هاملكار الثورة . وأعيـــد فتح الطريق إلى البحر من جديد .

وتوطد بذلك سلطان أسرة بارسا فى المدينة . .



ولكن قرطاجنة لم تلبث أن تعرضت لمحنة جديدة .

ذلك أن روما طلبت من قرطاجنة الانسحاب من جزيرتى سردينيا وكورسيكا ودفع غرامة جديدة زنتها ١٨٠٠ طالن (وزن قديم ) من العملة الفضية بالاضافة إلى الغرامة التى سبق الإتفاق عليها فى عام ٢٤١ .

وكانت الشروط التى قبلها هاملكار بوصفه مبعوث قرطاجنة شروطا تبرم بين دولتين على قدم المساواة . وقبلت قرطاجنة التخلى عن صقلية ، ودفع غرامة تساوى تكاليف الحرب التى دفعتها

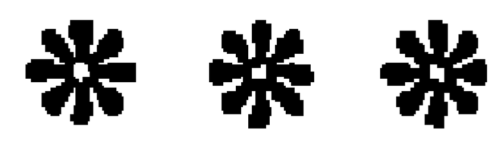
روما ؛ وتحديد مجالات التجارة لكل من الدولتين ، مع تعهد كل منهما بعدم التدخل بين حلفاء الفريق الآخر .

بيد إنه ما كادت قرطاجنة تسحق الثورة التى نشبت بين القبائل المتاخمة لها حتى فوجىء هاملكار بتدخل مجلس شيوخ روما ومطالبته بسحب حاميات قرطاجنة من سردينيا وكورسيكا ، وإلا أعتبرت حالة الحرب قائمة بين روما وقرطاجنة .

وكان ضياع سردينيا وكورسيكا معناه ضياع موانىء ثمينة تعتمد قرطاجنة عليها فى منطقة غرب البحر الأبيض ، كما أن تسليم صقلية الغنية الواقعة فى منتصف الطريق بين طرف إيطاليا الجنوبى وشبه جزيرة قرطاجنة بمثابة التخلى عن خط دفاع حيوى ، وفقدان هيبة قرطاجنة كدولة بحرية هامة فى البحر الأبيض .

وانقسم أعضاء مجلس قرطاجنة على بعضهم ، وتعددت الآراء وراح فريق ينحى باللائمة على هاملكار ويقول إنه ما كان يجدر به أن يتخلى اطلاقا عن إيرايكس . إلا أن أغلبية الأعضاء كانت تدرك استحالة إستئناف الحرب ضد روما بعد أن تمكنت من تجديد جيوشها خلال الهدنة التى إستمرت ثلاث سنوات .

ويقول التاريخ أن قرطاجنة سحبت حامياتها وتخلت عن الجزر ودفعت الغرامة الجديدة إلا أن هذا الحادث كان حافزا للقراطاجنيين على الاستعداد للنزاع الكبير الذى نشب بين الدولتين للسيطرة على البحر الأبيض والذى أشتهر فى التاريخ باسم حرب هانيبال .



عندما كان هانيبال فى التاسعة من عمره شاهد الاستعدادت الأولى التى أتخذتها المدينة توطئة للحروب التى خاضا هانيبال فيما بعد ضد روما ، فقد اقامت المدينة ثلاثة أسوار عالية حولها ، وجمعت عدداً من الفيلة دربتها على القتال ، وانشأت مئات من الحظائر ضمت الآلاف من الجياد المطهمة . وأعدت بالأسوار أماكن خاصة لرفع اجهزة إطلاق الصواريخ الجديدة حتى يستحيل بذلك اقتحام المدينة من البحر

وقبل أن تقطع هذه الاستعدادات مرحلة كبيرة ، أعد هاملكار العدة للهجرة إلى أرض جديدة فى الغرب بعيداً عن سلطان الرومان ورأى هاملكار أن يصحب معه زوج أبنته الكبرى وبعض الضباط وقدامى المحاربين . . وعلم هانيبال أنه لم يعد هناك جيش من الجنود المرتزقة كذلك الذى عرفه فى جبل ايرايكس . وإن أباه قرر أن

يرحل المهاجرون فى قوارب متفرقة بغير أن يعلم أحد من ركابها بوجهتها الحقيقية .

وبعد ذلك بسنوات طويلة ، وعندما كان هانيبال ينزل ضيفاً على بلاط انتيوخس ، تذكر كيف إستدعى أباه جميع مرافقيه من النبلاء والضباط وطلب منهم : إذا أرادوا الذهاب معه ؛ أن يقسموا فى معبد ملكارت على الوفاء لقرطاجنة . وعندما ذهبوا إلى المعبد ، نحر هاملكار حملا . وبعد أن أقسم النبلاء يمين الولاء استدعى أبنه هانيبال وسأله برفق إن كان يرغب فى الذهاب معه وفى هذا يقول هانيبال إنه كغلام قبل العرض فوراً فأمسك أبوه بيده ، وقاده إلى المذبح وطلب منه أن يضع يده الاخرى على ذبيحة الحمل وأن يقسم بأنه لن يصادق الرومان . . وقد كان .

وكان لهذا القسم الذى أقسمه أفراد أسرة بارسا عند رحيلهم إلى إسبانيا أثره الحاسم فى تصميمهم على عدائهم الدائم لروما فى السنوات التالية .

عندما أقبل الربيع أبحرت سفينة هاملكار ومن معه من ميناء قرطاجنة ليلا يتبعها عدد من السفن الصغيرة ، بينما وقف كهنة المدينة وعظماؤها يلوحون بأيديهم مودعين .

ووقف العلام هانيبال على ظهر السفينة يتأمل الشاطىء وهو يبتعد رويدا رويداً بدون أن يدرى أنه سوف يمر ستة وثلاثون عاماً قبل أن يقع بصره على ساحل إفريقيا مرة أخرى .

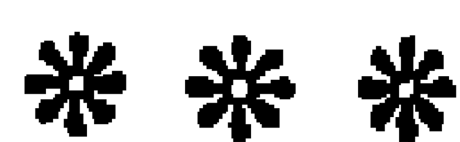
وبعد ستة أيام دخلت السفن فى نطاق مياه المحيط الخارجى ، ثم عبرت مضيق جبل طارق وانطلقت إلى قادس وهى مدينة تقوم على شبه جزيرة أشبه بالمول الطبيعى ويحميها خليج عميق يتسع لرسو السفن الكبيرة .

ووقف رجال المدينة الرسميون يحيون هاملكار ومن معه ، وعرضوا عليه ضيافتهم وهم يترقبون افضائه بالسبب الذى دعاه المجىء . وحياهم هاملكار باحترام سياسى ، وافضى إليهم بأنه جاء للاقامة بينهم وأنه سيدفع جميع تكاليف إقامته ومن معه .

كانت مهمته اخضاع الأراضى الاسبانية . إذ كان المأمول أن يتمكن من تحويل هذا الطرف الغربى من أوربا إلى قاعدة لقرطاجنة فى فترة وجيزة حتى يمكن استخدامها للتوسع فى التجارة على طول سواحل المحيط الغربية .

ومع أن العذر الذى قدمه هاملكار لأهل قادس كان صحيحاً ، إلا أنه لم يكن كل الحقيقة . إذ الواقع أن شبه الجزيرة الكبيرة

كانت خارج نطاق نفوذ روما ، تحميها جبال البرنيز الشامخة التى يمكن استخراج ثروات معدنية كبيرة من مناجمها ، كما يمكن تجنيد جيوش جرارة من أبنائها .



قضى هاملكار زهاء تسع سنوات فى العمل الشاق الدائب لاتأخذه بمن معه ولا بنفسه شفقة ولا رحمة . فاستطاع أن يحقق الشيء الكثير فى هذه الفترة .

وكان هاسدروبال زوج ابنته الكبرى يقدم له كل مساعدة فى طاقته إذ أنه كان يملك مناجم كبيرة وثروة عريضة . أما الشاب هانيبال فكان يلازم أباه كظله ويدين له بالطاعة العمياء .

وعثر هاملكار ومن معه على قاعدة للعمليات فى انتظارهم بأسبانيا . فعندما ابحروا فى نهر بيتيس من قادس ، لم يلبثوا أن دخلوا أرض المراعى والمدن الهادئة فى جنوب أسبانيا وقد رحب بهم سكان هذه المدن وقدموا لهم أباريق النبيذ وأوانى الفاكهة كان هؤلاء هم الأيبيريون الذين يقيمون فى جنوب أسبانيا وهم قوم نصف متمدين ، نصف قرطاجنيين فى عاداتهم ، إذ كان أسلافهم من البرابرة الذين هاجروا من أفريقيا عبر المضيق الضيق وكانت ميناءاهما علقة وعبدرا خاضعتين لقرطاجنة .

وقامت البعثة الاستكشافية برحلة عبر وادى بيتيس البا سم ومعها الشاب هانيبال حتى يلم بطبيعة البلاد وعادات أهلها ولغاتهم .

وبعد أن انتهى هاملكار من جولته ، أمر بحفر المناجم فى سهل ايبريا وشق قنوات تصل مناطق هذه المناجم بالانهار ، وقطع الخشب من أشجار البلوط المنتشرة بالغابات وتدريب الشبان على القتال لإنشاء فرق محاربة كافية . .

وكان هاملكار قد جاء معه بمهندسين وضباط لمساعدة أهالى ايبريا فى بناء دولة كبرى .

وعند رأس نهر بيتيس نهضت جبال الفضة ، وكانت هذه الجبال ( سييرا مدريتا ) تضم ثروة اسبانيا المعدنية . ومن ثم نشط مهندسو هاملكار لتحديد مواضع حفر المناجم . وأشرفوا على إنشاء أفران الصهر . وسرعان مابدأت الثروة تتدفق ذهباً وفضة على هاملكار ومن معه .

وكان الكلت يقيمون شمال هذه الجبال بعد أن هاجموا اسبانيا ولكن الايبيريين استطاعوا صبغهم بالصبغة الايبرية فاستوطنوا اسبانيا واشتغلوا بالرعى . ولكن دمهم الكلتى كان يتغلب عليهم من حين لآخر فيندفعون إلى الغزو أكثر مما يشتغلون بالتجارة

إلا أن ظهور هاملكار بينهم فجأة كالصاعقة ، وأخذه رهائن من شيوخ قبائلهم ، وعصفه بقلاعهم الحجرية العتيقة القائمة على مرتفعات منعزلة التي كان ملوكهم يقيمون بها ، جعلهم يدركون أنهم أصبحوا تحت سيطرة مارد جبار .

وهب أحد ملوك الكات وأنشأ جيشاً جراراً من الفرسان لطرد هاملكار إلى البحر فتقدم هاملكار لمقابلته ، وبعث بفيلته العتيدة فى مقدمة الجيش فكان لذلك رد فعل نفسانى عنيف بين صفوف العدو الذى لم يألف منظر الفيلة ، فاختل نظام هذه الصفوف وإندحر جيش الكات وسقط ملكهم أسيراً فأمر هاملكار بسلبه نعمة البصر ثم صلبه بعد ذلك. أما الاسرى فضموا إلى جيش هاملكار .

ورغم انقضاء تسعة أعوام على وصول هاملكار فإنه لم يستطع أن يخضع لسلطانه أكثر من ثلث البلاد .

وفى تلك الأثناء قتل هاملكار بارسا .. قتله أحد رجال القبائل غيلة .

وبادر ضباط قرطاجنة ، فانتخبوا هاسدروبال خليفة لقائدهم هاملكار وسرعان ماجرد هاسدروبال حملة للثأر. فدمرت هذه الحملة القرى واستعبدت سكانها وأشاعت الذعر بينهم . .

## قرطاجنة الجديدة :

ومرت ثمانية أعوام أخرى . . .

وكان قد حدث تغيير كبير فى جنوب اسبانيا خلف نطاق من السرية التامة فرضه القرطاجنيون . . ذلك لأن هاسدروبال كان سياسياً بارعاً ، فتخلى عن سياسة الاخضاع بالعدوان التى اتبعها هاملكار ، وسعى إلى كسب صداقة رؤساء القبائل الايبيرية واتخذ لنفسه زوجة من إحدى بناتهن. وهكذا استطاع هاسدروبال أن يتجنب الأخطاء التى وقع فيها سلفه .

وازدهرت التجارة ، وبعثت إيبريا شحنات كبيرة من الفضة هدية لقرطاجنة واستعد هاسدروبال لسك نقود باسمه .

وتخلى منشىء الدولة الأسبانية عن مدينة قادس العتيقة وأنشأ ميناء جديداً على الشاطىء الغربى للبحر الأبيض المتوسط لايبعد أ كثر من سفر أربعة أيام عن قرطاجنة .

إلا أنه كان من المتعذر إخفاء مرفأ كبير كهذا عن أعين ركاب السفن المارة . ونظراً لأن هذا المرفأ كان شديد الشبه بقرطاجنة الأفريقية فقد أبلغ تجار مارسيليا أمر قرطاجنة الجديدة للرومان،

وأضافوا أنهم يعتقدون أن القرطاجنيين أنشأوا حظائر كبيرة لبناء السفن وأن اسطولا كبيراً بسبيل الخروج إلى عرض البحر.

وكان لهؤلاء التجار المارسيليين (أحفاد الاغريق الفينيقيين) مرفأ تجارى إلى الشمال فوق مصب نهر ابرو العظيم على الساحل الشرقى للأرض المخبأة ، ونظراً لأن أهالى مارسيليا عانوا الأمرين من خداع قرطاجنة وما قام به أهلها من سرقة التجارة الساحلية ، ولما كانت مارسيليا حليفة للجمهورية الرومانية ، فقد استغاثت بحاميتها . ولكن الرومان اعتادوا ألا يقدموا على أى عمل حربى إلا بعد أن يناقشه مجلس الشيوخ . ومن ثم أوفدت روما رسلا إلى هاسدريال طلبوا منه التعهد بألا يعبر القرطاجنيون خط أبرو وأسلحتهم فى يدهم .

وأعطى هاسدروبال المهذب الوعد المطلوب بالنيابة عن قرطاجنة .

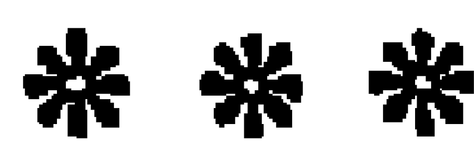
ولكن هذا الوعد كان بمثابة حرمان الدولة الجديدة من خط دفاعها الأسبانى الطبيعى : جبال البرنيز . والواقع أن هذا الوعد كان اعترافاً بوجود سلطات روما على مبعدة ٦٥٠ ميلا من نهر

التيبر . ومع ذلك فان هاسدروبال اســـتطاع بتصرفه هذا أن يكسب وقتا ثمينا لاستعداداته وفى هذا قال الجواسيس لأهالى مارسيليا ثم لأهالى روما : « لقد أبدى هاسدروبال مهارة لاتبارى فى اغراء القبائل الوطنية بالانضمام إلى امبراطوريته » .

ولكن الوقت كان يمر سريعاً . وبعد خمس سنوات من زيارة المبعوثين اغتيل هاسدروبال.. اغتاله أحدب كلتى كان يحقد عليه .

واجتمع ضباط الجيش فى قرطاجنة الجديدة وانتخبوا هانيبال قائداً عليهم لأنهم « رأوا فيه صورة قائدهم المحبوب هاملكار » .

وأثار هذا الاختيار بعض الجدل فى مجلس قرطاجنة . فادعى جناح أسرة هانو ، وهم خصوم أسرة بارسا ، أن هاسدروبال جعـــل من نفسه ملكا فى كل شىء ولم يكن ينقصه غير الاسم ، أما هانيبال فقال شيوخهم إنه غلام لايعلم أحد شيئاً عنه . ولكن عقلاء المجلس رأوا عرض الأمر على المجالس الشعبية . وكانت هذه المجالس تؤيد أسرة بارسا على طول الخط ومن ثم أصدرت قراراً شبه اجماعى بتأييد تعيين هانيبال .



فى هذا العام ، أى عام ٢٢١ كان هانيبال فى السادسة والعشرين من عمره . وقال الذين احتكوا به أنه كان شبيها بأبيه فى شجاعته وتعوده على حياة الخشونة وسرعة خاطره ومبادرته بالعمل كلما اعترضته صعوبات ، وقدرته على الاحتفاظ باتزانه العقلى فى الملمات فضلا عن تحمله الحرارة والمكاره بغير أن يبدو عليه التعب .

وكان هانيبال لايحتسى إلا قليلا من الخمر ، ولكنه كان نهماً ، يجيد الفروسية ويحذق الفنون الحربية . . كما كان يتمتع بموهبة الضحك ، والقدرة على التهكم حتى على نفسه فى بعض الأحايين .

ولما كان قد قضى سنى مراهقته فى سهول الأندلس واختلط بنسائها، فقد اتخذ له زوجة من أحداهن وكان اسمها أميرة كاسترو، ولكن اسمها غير معروف ، ولعله كان لهذا الزواج مغزى سياسى لأن الفتاة كانت تنتمى إلى قبيلة أو لكيد التى كانت تقيم على الحدود بين جبال الفضة بشبه جزيرة ايبريا والوادى الذى كان الكاربثيون البرابرة يقيمون فيه .

وكانت أول خطوة أقدم عليها سريعة كالبرق لبسط نفوذه على الشمال .

* * *

كانت شبه جزيرة أسبانيا مقسمة حينذاك إلى ثلاثة أقسام أو بمعنى أصح كان سكانها من ثلاثة أنواع . فكان القسم الأول ، وهو الأصغر ، يتكون من الفوروسيين والايبيريين الذين يقيمون على الساحلين الجنوبي والشرقي ؛ وكان القسم الثاني يتكون من الكلت الغزاة الذين استوطنوا أسبانيا وامتزجوا بأهلها ، وكانوا يقيمون فى سهول مسينا حول نهر التاج حيث توجد اليوم مدينة توليدو .

أما القسم الثالث ، وكان فى الشمال ، فكان يتكون من الكلت ، وكان بعضهم قد عبر حاجز جبال البرنيز فى القرن الخامس ومازال ينتقل من مكان لآخر ويختلط بالعناصر الجرمانية الخشنة التى دفعتهم جنوبا من انهار بحر البلطيق ؛ وكان يطلق على هؤلاء الكلت شبه المحاربين اسم الغال . وقد امتازوا بكثرة عددهم ، وفرط حيويتهم عند الإثارة .

ولقد عرف هانيبال كل هذه الحقائق قبل أن يبدأ فى اكمال غزو أسبانيا . وكان جيشه يتكون حينذاك من فصيلة من الضباط القرطاجنيين المتعلمين ، ومعهم مشاة أفريقيون مدربون وفرق نصف مدربة من الايبريين ، وأخيراً مجموعة من الفيلة ..

بهذا الجيش زحف هانيبال من نور المدنية بين المدن الساحلية نحو ظلام العصور الوسطى . . وكان عليه أن يلعب حينذاك دوراً مزدوجاً ، فباعتباره رئيس أسرة بارسا الحاكمة كان قائداً عاما فى خدمة مجلس قرطاجنة ، أما الكلت فكانوا يعتبرونه ملكا واسع الثراء يتمتع بتأييد جيش كبير . ولقد دعت الضرورة هانيبال إلى القيام بدور ملك فى العصر الحديدى إذا نطق بكلمة كانت فيها الحياة أو الموت .

وكان هانيبال يرى فى أسبانيا دولة منشقة على نفسها يتصارع سكانها ، ويهاجم بعضهم محاصيل البعض الآخر لزيادة مالديهم من محاصيل .

وقد اضطر هانيبال إلى الاشتراك فى جميع المعارك التى خاضها جيشه آنذاك ليبث الحماس فى نفوس جنوده الذين بدأوا يطيعونه طاعة عمياء .

وفى بداية عام كان يلعب خلاله دوره المزدوج كملك يستطيع أن يعاقب وأن يكافىء حسبما يشاء ، عبر هانيبال نهر التاج ، وكان يجند مزيداً من الجنود وهو يكتسح القرى فى طريقه ويقود جيشه عبر سييرا جوادرما حتى أخذ الثاكسائيين على غرة . واكتفى

منهم بدفع غرامة رمزية ، وتقديم العلف اللازم لحيوانات جيشه وتجنيد الشباب الأشداء فى جيشه .

ولكن هذا الشعب البدائى لم يهضم سلوك هانيبال ، ولهذا فما كاد يمضى عام وينطلق هانيبال بجيشه إلى الجنوب حتى قررت قبائل الشمال أن تتحد لمقاومته .

ومع أن ضباط هانيبال نصحوه بمهاجمة هذه القبائل وسحق مقاومتها إلا أنه رأى أن يتراجع سريعاً بجيشه نحو نهر التاج، فيتبعه الكلت فى أعداد متزايدة، ولكنهم وجدوا القرطاجنيين فى انتظارهم عند الشاطىء الجنوبى . وعندما اندفع فرسان البرابرة إلى النهر ليعبروه بجيادهم أمطرهم جيش هانيبال بوابل من الصواريخ ، كما انقض الجنود على المهاجمين برماحهم الطويلة بينما أشاعت الفيلة الذعر بينهم وجعلت الجياد تندفع عائدة إلى الماء بعد أن ألقت براكبيها فيه .

ولاذ جيش الكلت بالفرار ، فتبعهم القرطاجنيون ليضعوا حداً لأية مقاومة مستقبلة . . وهكذا بسط الغزاة القرطاجنيون نفوذهم على السهول الوسطى المتاخمة للساحل الشرقى حتى نهر إبرو وتكون مركزاً للمقاومة حول مدينة عتيقة ذات أسوار تدعى

آرس . وكانت المقاومة مكونة من الايبريين الذين شيدوا هذه المدينة ، ومن مدينة ساجنتم .

ولقد كلفت المناورات التى جرت فى هذه المنطقة هانيبال المتلهف شيئاً لم يكن فى استطاعته أن يجازف بفقده ، هو الوقت .

معركة ساجنتم

لم يضيع هانيبال وقته فى إنشاء المشروعات العمرانية أو رعاية التجارة فقد ترك الأمور لأخيه الصغير . وراح هو يستكشف السواحل المحيطة به ويطالع كل ما تصل اليه يده من كتب الرحلات والاستكشاف ، كما استدعى مدرساً طبياً من الأسكندرية هو سايلنوس وأبدى اهتماما كبيراً بتاريخ الشعوب المحيطة ، وبالأخص الرومان .

وكان هانيبال يعتمد اعتماداً كبيراً فى الحصول على معلوماته على مايسمعه من ربابنة السفن ، والتجار ، وجواسيسه الذين كان يبعث بهم إلى أقطار الأرض المعروفة . ويبدو أن حب استطلاع هانيبال لم يكن له حدود ، لأنه كان لا ينى عن الاستعلام عن عادات الناس ومحاصيل بلادهم ومواسم حصادها حتى استطاع أن يستكمل

صورته الذهنية عن جميع شعوب البحر الأبيض ، وخلال عام ٢٢٠ قام هانيبال برحلات كبيرة فى سهول أسبانيا الوسطى لدراسة احتمالات تجنيد بعض الفرق من السكان لما لمسه من قدرتهم على احتمال المشاق وجرأتهم منقطعة النظير . .

وبعد أن اطمأن هانيبال إلى كفاية جيشه من الناحية العددية والتدريب ، انصرف إلى تشكيل قوافل من عربات النقل الخفيفة غير المعروفة فى افريقيا وكانت تجرها ثيران صغيرة سريعة الحركة

وفى ربيع عام ٢١٩ وفد على قرطاجنة الجديدة رسولان قادمان من روما ، وقابلا هانيبال وطلبا منه ، باسم مجلس الشيوخ الرومانى ، تنفيذ الاتفاقية التى سبق إبرامها مع هاسدروبال وتعهد فيها بعدم عبور نهر ابرو ، والامتناع عن مهاجمة ساجنتم بعد أن أصبحت حليفة لشعب روما .

كانت ساجنتم قلعة على الشاطىء فى منتصف الطريق تقريباً بين قرطاجنة الجديدة ونهر ابرو ، ولهذا كانت ميناءاً تجارياً هاماً دبرت حوله مؤامرات كثيرة ، وأصبحت مسرحاً لاشتباكات مسلحة بين سكانها والمستوطنين الطوروسيين الذين كانوا يقيمون على مقربة منها . ولهذا سعى أهلها إلى روما ينشـــدون حمايتها كحليفة لهم

وأجاب هانيبال على قول رسولى روما بأن الاتفاقية التي أبرمها هاسدروبال لا تجيز لشعب روما التمتع بأية سلطة جنوب ابرو ؛ أما عن أهالى ساجنتم فإنهم اضطهدوا الطوروسيين وعليهم أن يدفعوا ثمن ذلك ، لأن « من عادات القرطاجنيين مساعدة الشعوب المضطهدة »

وهكذا رفض هانيبال طلب روما لأمر كان يبيته . وعاد الرسولان أدراجهما إلى روما ، بينما أرسل هانيبال تقريراً بما حدث إلى قرطاجنة

ومع أن الوثائق التاريخية لم توضح أسباب الحرب إلا أن المعلومات التي ذكرها ليفى تشير إلى هانيبال أن حاصر ساجنتم فى العام التالى ، وعندما عاد الرسولان إليه مرة أخرى بعث ببعض رجاله لمقابلتهما على الشاطىء وإبلاغهما أنه ليس من المأمون أن يجيئا إليه ، وإنه ليس لديه وقت للاستماع إليهما فى غمرة هذه الأزمة. ومع ذلك فقد استقبل هانيبال رسل قرطاجنة الجديدة وتحدث إليهم ، وبعث معهم بتقرير الى قرطاجنة .

وعاد الرسولان إلى قرطاجنة وطالبا بحياد ساجنتم . ولكن مجلس برسا رفض التدخل فيما يرى هانيبال اتخاذه من إجراءات

وبذل هانو ، زعيم المعارضة ، جهداً جباراً وناشد زملاءه أعضاء المجلس عدم إثارة الرومان بسبب الحرب مع ساجنتم . . وحذرهم من إلحاق ابن هاملكار بالجيش لأن أسرة بارسا كلها مشبعة بالرغبة فى إثارة المتاعب ، ونقض معاهـــدة قرطاجنة مع روما

وفى صيف ذلك العام هاجم هانيبال مدينة ساجنتم

* * *

لاريب أن هانيبـال أدرك من دراسته أكثر مما ندرك نحن اليوم كيف خضع معظم إيطاليا لشعب المدينة الغامضة الواقعة فى وادى نهر التيبر ، وكيف كانت خطوتهم الأولى فى التوسع هى الاستيلاء على اتروسكان على التيبر الشمالى ، ثم استطاعوا ــ بالتحالف مع بعض الأقوام الآخرين ــ أن يسيطروا على وسط إيطاليا كله والاستيلاء على كابوا ، وهى أكثر مدن اليونان الجنوبية ثراء وثقافة .

وعندما استطاعت روما إلقاء بايروس فى البحر ، زحفت جيوشها سريعاً فى اتجـاه البحر ، حيث استولت على تارنتم فى عام ٢٧٢ ، ورجيوم على مضيق مسينا فى عام ٢٧٠ ؛ وبعد

ذلك بست سنوات تبع عدد قليل من الكتائب بعض الجنود المرتزقة عبر المضيق الضيق الخطر ، فعثرت على قائد قرطاجنى مقيما فى قلعة مسينا ناحية صقلية .

وهكذا أخذت القوات الرومانية فى التوسع ، وبدأ الطغاة أو الديكتاتوريون يسقطون أمام قوة الرومان الجديدة الزاحفة الواحد بعد الآخر كأوراق الخريف ..

وكان التوسع الرومانى بريآ حتى ذلك الحين بينما كانت سيادة قرطاجنة على البحار ، ولهذا لم تتصادم مصالح القوتين كثيراً حتى لقد عرضت قرطاجنة أسطولها على الرومان أثناء حملتهم على بايروس..

ولكن فلكى الدولتين الكبيرتين لما يلبثا أن تلامسا عند مضيق مسينا ، وهكذا وجد المجال للتآمر تمهيداً للصدام المسلح . ومما زاد الطين بلة أن هيرو الثانى ، طاغية سيراكيوز ، قرر أن تكون السيطرة للفرق الرومانية ، وعرض عليها مدينته المنيعة لتكون قاعدة لها ، كما عرض عليها أسطوله للنقل . وهكذا قضى على سيطرة القرطاجنيين على نصف الجزيرة الغربى ، ومالبث مجلس قرطاجنة أن أدرك أن الجزيرة التى تعتبر مفتاح البحر المتوسط ستفقد .

وكانت سياسة قرطاجنة حتى ذلك العهد الحد من الحروب ، ونظراً لأن اعتمادها كله كان مركزاً فى الأسطول فإنها كانت تعتمد على الجنود المرتزقة لتشكيل جيشها البرى . فإذا ماأدى هذا الجيش مهمته سرحت جنوده بعد دفع مرتباتهم .

## رجيولاس يعرض شروطه

لاريب فى أن جميع هذه الخواطر طافت بذهن هانيبال . وأنه أدرك أن عليه أولا أن يهزم روما هزيمة ساحقة فى البحر ..

لخلال السنوات الثلاث الأخيرة ، ظهر بوضوح متزايد أن قواد الرومان وأعضاء مجلس الشيوخ الرومانى والشعب الرومانى عموماً بدأوا يدركون أنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على أية جزر بعيدة ما لم تتهيأ لهم السيطرة على المياه المحيطة بها . ونظراً لأن الرومان كانوا قوماً عمليين فقد نشطوا لإنشاء أول أسطول حربى (عند بداية العمليات الحربية ، أسر القرطاجنيون فرقة كاملة كانت تتجول خبط عشواء وسبب ذلك جهل ملاحيها بالفنون البحرية وأصابتهم بدوار البحر )

وفى مدى عام أنزلت روما إلى البحر مائة ناقلة جنود

و ٢٠ سفينة استكشاف ، وقالت الأساطير أن الرومان عثروا على ناقلة جنود قرطاجنية فأنشأوا ناقلاتهم على منوالها ..

ولم يقتصر الرومان على ذلك ، وإنما عمدوا إلى الاستعانة بأساطيل حلفائهم ـ تارنتم ونابلى وبيزا واتروسكان وسيراكيوز

وهكذا استطاعت روما أن تعبىء قوتين برية وبحرية رهيبتين . .

وكان أول صدام وقع بين الأسطولين القرطاجنى والرومانى خارج شبه جزيرة مايلاى غير بعيد عن مسينا فى عام ٢٦٠ . وكان الأسطول القرطاجنى معتاداً على المناورات دون الاعتماد على الجنود ، ولهذا كان عدد الجنود الملحقين به صغيراً ، ولعل المفاجأة لعبت دوراً هاماً فى النتيجة ، إذ دمر معظم السفن القرطاجنية أو وقع فى الأسر

وهكذا أحرزت روما أول نصر بحرى لها على قرطاجنة . .

إلا أن معركة مايلاى لم توطد سيطرة روما على البحر بين يوم وليلة ، ذلك لان أساطيل قرطاجنية أخرى خفت إلى مكان المعركة واكتسحت شواطىء إيطاليا نفسها ، كما أن قواد روما البحريين لم يكونوا قد تمرسوا بعد فى فنون القتال البحرى ولهذا استطاع

القرطاجنيون إبادة الآف الجنود الرومانيين . بيد أن ما حدث في مايلاى كان درساً للقرطاجنيين جعلهم يخشون بعد ذلك اختبار قوة سفنهم ضد سفن روما .

أدرك هاملكار أن تفوق مدينته البحرى لم يعد له وجود ، ولا ريب فى أن هانيبال أدرك بدوره أنه أصبح من العسير أن يقوم جيش قرطاجنة برحلة عبر البحر المفتوح .

وثمت فكرة أخرى ظلت ماثلة فى ذهن هانيبال نتيجة للكلمات التى قالها القنصل الرومانى رجيولاس ومؤداها أن انتصار مايلاى فتح أفقاً جديداً أمام المقيمين فى التلال السبعة ، وإنه فتح لهم طريقاً إلى شواطىء أخرى غير شاطئهم ، وليس من شك فى أن أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى تصوروا أن الكفاح حول صقلية يمكن أن ينتهى بالاستيلاء على قرطاجنة .

وهكذا ما كادت تنقضى ثلاثة أعوام على موقعة مايلاى حتى أبحر أسطول مكون من ٣٠٠ سفينة مختلفة تحمل أربع فرق من الجنود البريين، وشق هذا الأسطول طريقه وسط أسطول قرطاجنة جنوب صقلية ، وبذلك نقل القتال بأمان إلى أفريقيا . وتولى القنصلان رجيولاس وفالو قيادة الحملة . وكان يبدو أن أية قوة

لن تستطيع الوقوف فى طريقها إلى المدينة التى لم يكن لها سور يحميها فى ذلك الحين ، وعندما وفد رسل القرطاجنيين إلى معسكر الرومان للتفاوض حياهم رجيولاس بما يشبه الغضب ( ذلك لأن ظهور الجيش الاوربى فجأة آثار شعوب أفريقيا التى ظلت نهبا للاضطراب فترة طويلة ) .

وتحدث رجيولاس بوصفه القائد الحربى للقبائل الأوربية ، وألقى إليهم بشروطه وهى : التخلى عن صقلية وسردينيا .

تسليم جميع الأسرى الرومانيين بلا تعويض ، مقابل تسليم الأسرى القرطاجنيين بتعويض ودفع تكاليف الحرب لروما على أقساط سنوية .

أن تتعهد قرطاجنة بألا تشن حرباً أو تبرم صلحاً بغير موافقة حكومة روما .

أن توافق قرطاجنة على عدم إعداد أسطول للقتال والاحتفاظ بسفينة واحدة فى الخدمة .

أن تتعهد قرطاجنة باعداد خمسين سفينة وتقديمها لروما لاستخدامها بمعرفتها .

وكان معنى هذه الشروط القضاء على المدينة التى ظلت سيدة البحار حتى ذلك الحين. وهنا استيقظت المدينة لمواجهة خطر لم تكن تتوقعه حتى ذلك الحين،وارسلت سفنا لاحضار هاملكار بارسا ومحاربيه من جهة صقلية ( كانت السفن الرومانية راسية فى خليج تونس والقواد معسكرين على الشاطئ ).وقدمت لجندى آخر محلك، هو اكسانثيوس، قائد جنود اسبارطة المرتزقه، فرقاً من الفرسان النوميديين وفيلة لمقابلة فرق رجيولاس فى الوادى المكشوف مستخدماً فى مقاتلتها تكتيكا حربياً جديداً . وتقابل الرومان مع جيش اكسانثيوس — هاملكار، فحلت بهم كارثة انتهت بأسر نصف قوات القائد الرومانى وهو على رأسهم، بينما اضطرت بقايا جيشه للتقهقر إلى سفنها، ولكن عاصفة بحرية أغرقت ٢٨٤ سفينة بمن عليها من المحاربين.

وعندما بلغت أنباء الكارثة مدينة روما أصدر مجلس الشيوخ الرومانى أمره بالشروع فوراً فى بناء أسطول جديد. ويقال أن حوالى ٢٢٠ أعدت فى مدى ثلاثة شهور، ووقفت متأهبة عند الساحل الايطالى..

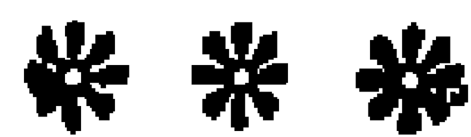
وبعد سنوات من المنافسة المضنية اتفق الطرفان على الصلح

فتركت قرطاجنة صقلية لروما ودفعت لها تعويضاً .

كان هذا هو صلح سنة ٢٤١ الذى أبرمه هاملكار أثناء دفاعه عن جبل ابرايكس ، وقد خلف هذا الصلة مدينة قرطاجنة دولة ذات سيادة بلا قيود على أسطولها .

ولكن روما كسرت هذا الصلح فى غضون ثلاث سنوات .

وبقيت شروط رجيولاس ماثلة فى ذهن هانيبال .



كان هانيبال يحرص على أن تكون لديه خريطة اينما ذهب ، وكان يحتفظ بها لاستعماله الخاص ويطلب إلى الكتبة اليونانيين ملثوها على الشواطئ فيحددون عليها سلاسل الجبال ومدائن الساحل الشمالى للبحر الأبيض المتوسط .

وأبلغ الجواسيس هانيبال أن أبواب معبد جانوس أغلقت بعد أن ظلت مفتوحة أجيالا وكان ذلك ايذانا بأن الجمهورية أصبحت فى حالة سلام . ومع ذلك فإن اسطولا رومانيا عبر بحر الادرياتيكى إلى الجانب البعيد لتأديب القراصنة ( كان بايراس

قد ظهر ثانية على الجانب الآخر من بحر الادرياتيكى ) .

بعد عام ٢٢٦ (سنة الاتفاق مع هاسدروبال) حدثت تغييرات كثيرة ؛ ففي شمال إيطاليا ثارت قبائل الكلت على طول نهر بو فزحفت الجيوش من نهر التيبر لاخضاعها وإنشاء نقط حدود على نهر التيبر. وفي عام ٢٢٤ عبرت هذه الجيوش نهر بو ، وبعد ذلك بعامين استولت على ميلانو مدينة الكلت الرئيسية . وفي الوقت ذاته سحقت حملة أخرى آخر مقاومة سكان الجزيرة في سردينيا .

وفي عام ٢١٩ غادرت السفن الميناء بأقصى سرعة لتعبر البحر الادرياتيكى مرة أخرى . وأنزلت القوات البرية على ساحل دلماسيا ( ايبريا ) التي كانت محمية رومانية . وكان الثائر في هذه الحالة ديمتريوس من فاروس ، فلاذ بالفرار إلى مقدونيا .

أحدثت هذه التغييرات التي طرأت على الخريطة صورة لم يكن هانيبال ليستطيع أن يخطئها ، فإلى الشرق أصبح الادرياتيكى بحراً رومانياً مغلقاً ، وإلى غرب ايطاليا سيطرت روما على البحر الواقع خلف سردينيا وكورسيكا ؛ فإلى أين سيمضي زحف روما في البحر الأبيض ؟ أن قرطاجنة لاتزال تسيطر على الطرف الغربي من هذا البحر حيث يدنو الشاطئان الأفريقي والأسباني من

بعضهما ، وفى منتصف مسافة هذا الطرف توجد جزر باين والبليار الصغيرة وميناء ساجنتم . .

ثم دخل الرسل الرومان أسبانيا ليعلنوا الحماية على ساجنتم ، وخلف هؤلاء الرسل بدأت روما تعبئ قوات برية ضخمة وأعدت حوالى ٢٠٠ سفينة حربية لاطلاقها من مراسيها الشتوية ألم تكن هذه القوة تعبأ ضد أسبانيا ؟

وفى أوائل صيف عام ٢١٩ اتخذ هانيبال قراراً بالعمل . . كان جيشه يتكون أساســاً من المجندين الأسبان ، وقد حاول اقتحام القلعة المشيدة على مرتفعات ساجنتم ولكنه فشل لأنه لم يكن يملك آلات الحصار ولا المهارة الهندسية التى تمكنه من الاقتراب من المنحدرات الصخرية . وأحاط هانيبال بساجنتم وانتظر استسلام المدافعين عنها ، بل لقد ترك القيادة لماهربال وانطلق هو إلى سهول الكلت غيرة المستقرة . . وخلال هذه الشهور وضعت زوجته طفلا .

وبداخل ساجنتم راح السكان ينتظرون وصول العون إليهم من روما حليفتهم ، ولكن انتظارهم طال بدون جدوى ، وبعد ثمانية شهور ، اقتحم القرطاجنيون سور المدينة العتيق . فانتهت

المقاومة . وأمر هانيبال بمنح أعوانه مكافآت مالية ، وارسال السلع التى استولى الجيش عليها إلى قرطاجنة . .



أما ماحدث فى قاعات مجلس الشيوخ بروما خـــلال تلك الشهور من عام ٢١٩ فأمر يكتنفه الغموض . إلا أنه لانزاع فى أنه ـ بعد عودة الأسطول من البحر الادرياتيكى ـ دارت مناقشات طويلة حول موضوع قرطاجنة ، وتحرك هانيبال ضد ساجنتم ؛ فنادى بعض كبار النبلاء ، وبالأخص من أفراد أسرتى كلودى وسبيو ، بضرورة إجراء تعبئه عامة ضد قرطاجنة بينما رأى الفابيون ذوو النفوذ الاتجاه إلى المفاوضات ، ويقال أن أحد الآباء الكبار وهو فابيوس فيرا كوزس قال : « إن الحديث عن الحرب فى هذه القاعة شىء ، والاشتراك فى معركة بالميدان شىء آخر » .

ويبدو أن تلك كانت مناسبة من المناسبات التى لم يتفق فيها مجلس الشيوخ صاحب السلطان مع الشعب ، فقد خاب أفق البحر الجديد لب كثير من الزعماء إذ كانت هناك موارد كثيرة بكراً

وراء سوا حلهم كما كانت أمامهم فرصة للاشتراك فى التجارة فيما وراء البحار بعد أن ظلوا محرومين منهـــا حتى ذلك العهد ( وبالاخص بعد أن صدر قانون فى سنة ٢١٩ الذى أباح لأعضاء مجلس الشيوخ الاشتغال بمثل هذه التجارة ) .

ومن ناحية أخرى لم تنس المجالس الرومانية الشعبية الخسائر الفادحة التى حلت بالأرواح أثناء حرب ٢٦٤ — ٤١، وكيف تدهورت حالة الزراعة بسبب غيبة الرجال فى الحرب .

كانت المجالس الشعبية قد أيدت العمليات الحربية ضد الغال لسبب بسيط ، وهو أن سحق الغال سيؤدى إلى زيادة الرقعة الزراعية فى ايطاليا نفسها فضلا عن القصاص من الغال الذين سبق أن اكتسحوا روما نفسها ؛ ولهذا فإن هذه المجالس لم تر مايدعو للاشتباك فى حرب أخرى دموية مع « الفينيقيين » قد تعود على الشعب بالوبال .

وهكذا طالت المناقشات ، وظلت أبواب معبد جانوس مغلقة ، ولم يرسل الأسطول إلى ساجنتم فلما جاءت الأنباء بسقوط ساجنتم فى قبضة هانيبال ، نشط جناح كلوديان — سبيو بمجلس الشيوخ يطالب بإعلان الحرب بحجة أن حليفا من حلفاء مجلس

الشيوخ والشعب الرومانى تعرض للهجوم عليه . وقال أفراد هذا الفريق أنه يمكن تغطية نفقات الحرب من فضة المناجم الاسبانية بعد الاستيلاء عليها .

وأخيراً أمكن الوصول إلى حل وسط ، فأرسل وفد المفاوضة مع قرطاجنة ، وتقرر أنه إذا فشل الوفد فى مفاوضاته ، فلامفر من إعلان الحرب .

وأبحر خمسة مندوبون إلى قرطاجنة فى شهر مارس عام ٢١٨ لمفاوضة القرطاجنيين .

ولكن هذا الوفد فشل فى مهمته فقد رفض القرطاجنيون الاعتراف بأن من حق روما التدخل فى شئون قرطاجنة وفرض حمايتها على المدن الأخرى

وهكذا نشأت حالة الحرب بين قرطاجنة وروما

وأوفد القرطاجنيون رسلا إلى هانيبال يبلغونه بما حدث

وفى الوقت ذاته ما كاد رسل روما يعودون إليها ويفضون بما حدث حتى فتحت أبواب معبد جانوس إيذاناً بقيام الحرب .

# الفصل الثانى

## الرحلة فوق جبال الألب

اسفرت انتخابات شهر مارس فى روما عن انتخاب بابليوس كورنيليوس سبيو قنصلا عن العامة ، وكان رجلا عاديا ولكنه يتمتع بفطنة وبعد نظر غير عاديين ، وكانت اسرتا كورنلى وسبيو قد قدمتا للدولة عدداً من القادة الناجحين اجيالا طويلة ، ولعل ذلك كان هو السبب فى انتخاب بابليوس . وسرعان ما عهد اليه بقيادة الجيش الذى أعد لغزو اسبانيا لأن اسرته كانت تنادى بالتوسع فيما وراء البحار وضم اسبانيا إلى املاك روما ، وهو المشروع الذى تأخر عاما نتيجة لمعارضة المجالس الشعبية .

والواقع أن هذا التأخير جعل من الضرورى تغيير خطة الحرب فقد ضاعت ساجنتم ولم تعد تصلح قاعدة للنزول إلى هذا

الساحل ، ومن ثم تقرر شن الحرب فى جبهتين ، فتبحر الحملة الكبرى من قاعدة صقلية لتنزل على الساحل الافريقى ثم تزحف بسرعة على قدر الامكان لتحاصر قرطاجنة نفسها بينما تسعى الحملة الصغرى إلى الاستيلاء على خط جبال البرنيز بمساعدة الصديقة مارسيليا ، حتى تستطيع تجميد حركة جيش قرطاجنة فى اسبانيا ولا تمكنه من العودة إلى قرطاجنة للدفاع عنها .

وكانت آخر الأنباء التى وردت من مارسيليا تقول بأن جيش قرطاجنة كان يزحف عبر نهر الحدود ، ابرو ، وعلى رأسه هانيبال .

ولم ينزل بابليوس سبيو إلى البحر الا فى الصيف ، حيث أبحر من مرفأ بيزا الجديد ومعه سفينتان كبيرتان وقوات متحالفة يبلغ عددها ٢٤٫٠٠٠ مقاتل فضلا عن سفن الحراسة العتيقة وعددها ٦٠ سفينة بما فيها سفن نقل العتاد .

ونظراً لأن معظم الجنود لم يتعودوا على ركوب البحر من قبل فقد أصيبوا بدوار البحر وعندما وصل الأسطول إلى مصب نهر الرون وجد ضباط مرسيليا شديدى اللهفة فى انتظاره ، حيث ابلغوه ان هانيبال موجود فى حوض نهر الرون .

وبهت بابليوس حينما سمع أن جيش هانيبال الاسبانى موجود

فعلا فى نهر الغال وأن المسافة التى تفصله عن جيشه لا تتعدى مسيرة يومين . وبادر بايفاد كتيبة من الفرسان النبلاء لفحص الموقف ، وضرب معسكره حتى يستطيع جنوده الاستراحة والتغلب على أثر دوار البحر . وبعد خمسة أيام عاد فرسانه واكدوا له إن معسكر الجيش القرطاجنى مضروب فعلا عند اعالى النهر ، وأن بجيش هانيبال عدداً من الفيلة .

وتملكت الحيرة القائد الرومانى ، وراح يتساءل عن سبب مجىء هانيبال إلى ما وراء الألب . . وجمع مستشاريه وراح يتبادل الرأى معهم ، وسرعان ما أجمع الكل على أن القرطاجنيين يبيتون قطعاً أمراً على النهر ، وأن خير تصرف فى هذا الوقت هو لقاء العدو والاشتباك فى القتال معه . وتبعا لذلك تحرك جيش روما على طول النهر بحذر شديد ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن العدو اخلى معسكره .

وهكذا ضاعت فرصة القتال من الرومان وحلفائهم . . كان القرطاجنيون قد عبروا النهر قبل ذلك بثلاثة أيام . واختفوا فى اتجاه الشمال . . لكن إلى أين ؟

واسقط فى يد بابليوس . ولكنه سرعان ما أصدر أمره

إلى جيشه بالانطلاق إلى اسبانيا . فتحرك الأسطول مرة أخرى فى حراسة سفن الحراسة بقيادة أخيه . أما هو فعاد ادراجه إلى بيزا ليتولى سلطاته باعتباره قنصلا . . ولقد كان لهذا التصرف من جانب سبيو العملى نتائج بعيدة الأثر :

كان واجبه الاول هو الدفاع عن حدود روما ، فإذا كان من المتعذر عليه أن يفعل ذلك الآن علي الرون فإنه سيفعله حتى علي نهر البو .

## مافى الزحف الكبير من خيال وحقيقة

كشفت سجلات عام ٢١٨ عن الخطوات التى اتخذها إبليوس أما على الجانب الآخر من الاحداث يخيم الصمت على تحركات هانيبال بن هاملكار فقـــد حرص القائد القرطاجنى الكبير على اخفاء نواياه إلا أنه من الممكن تمييز أثار تدل على خطته .

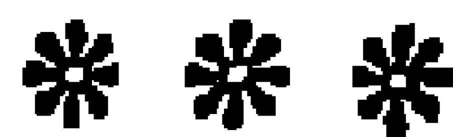
لقد توقع هانيبال اعلان روما الحرب عليه قبل ذلك بمام . أى منذ قابله الرسولان فى قرطاجنه الجديدة . ومن ثم فقد أجرى حركة تنقلات بين قواته المسلحة خلال فصل الشتاء التالى ، فارسل بعض المجندين الاسبانيين إلى افريقيا : واستدعى بعض الحاميات من افريقيا ، ومنح جنوده الاسبانيين اجازة غير عادية يقضونها

مع اسراتهم ، وأوفد رسلا إلى ذلك الشعب السحيق الذى يقيم عند جبال البرنيز علاوة على الشعوب التى تقيم شمالا عبر الألب حيث موطن الكلت فى شمال ايطاليا . وعهد إلى هؤلاء الرسل بمعرفة موسم الحصاد على طول هـــذا الطريق وكميات المحاصيل المرتقبة ، ودراسة خصائص الشعوب وهل هى شعوب حربية ، ومعادية لروما أم لا . .

وقام هانيبال بجولة جنوبا فى شبه جزيرة ايبريا باسبانيا خلال فصل الشتاء ، بل لقد زار قادس .

وعاد هانيبال فعبر سهول الاندلس فى أوائل الربيع ، ولم تكن هناك أية علامة تدل على أنه يعتزم مغادرة اسبانيا التى أصبحت موطن اسرة بارسا منذ عشرين عاماً .

وانهى هانيبال رحلة التفتيش الشتوية فى قصر بمدينة قرطاجنة الجديدة حيث كانت تجارتها تتزايد عاما بعد عام ، وكانت العربات تنقل إلى الميناء كميات من الفضة المستخرجة من المناجم تكفى لتغطية نفقات قرطاجنة كلها .



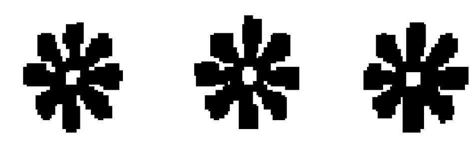
كان هدف هانيبال من البقاء فى أسبانيا هو الوفاء بالعهد الذى قطعة لأبيه بمعاداة روما مدى حياته .

ولقد كان من الواضح أن هانيبال كان يعد العدة فى ذلك الحين للدفاع عن سواحل أسبانيا ، واتفق أن جاءه رسل من قرطاجنة فى شهر أبريل وأبلغوه أن فابيوس قرر أن يخوض غمار الحرب . فأمر هانيبال جنوده الموجودين فى أجازة بالعودة إلى المعسكرات الموجودة حول قرطاجنة الجديدة .

ولاريب فى أنه عرف بعد ذلك من عملائه القرطاجنيين فى موانىء صقلية أن الأسطول كان يحتشد هناك لغزو الساحل الافريقى على مبعدة ١٠٠ ميل جنوبا ، بل أن السفن المعادية كانت قد بدأت تقوم بغارات استكشافية على الساحل بالقرب من قرطاجنة .

وأدرك هانيبال أن الخطر يحدق بالوطن الأصلى ، قرطاجنة ولما كانت قرطاجنة لاتملك أسطولا بحريا قويا يستطيع الدفاع عنها ، فقد قرر العمل بلا إبطاء ، فبعث بزوجته وطفله الذى لم يتجاوز العام من عمره إلى قرطاجنة فى سفينة سريعة حتى يتخفف من كل التزام يقيده بهما أثناء الحرب الطاحنة التى قرر أن يخوضها مع روما .

وفى شهر مايو تبع هانيبال جيشه الذى بدأ يزحف شمالا على طول الساحل .



تحرك جيش هانيبال فى فرق منفصلة بلا عجلة ، ويبدو أن جيشه كان مؤلفاً من مجموعات تنتمى إلى دول مختلفة ، فكان فيه النوميديون والمغاربة الذين يركبون الجياد بلا أعنة ويقذفون العدو بحرابهم الطويلة وصواريخهم بسرعة خاطفة ، ويندفعون بجيادهم كالسهام وبذلك يحسنون الكر والفر . . أما المشاة من الايبيين والبرابرة فكانوا يسيرون بخطى سريعة وهم شبه متلاصقين ، وقد ارتدوا دروعهم الحديدية وخوذاتهم الجلدية وحملوا تحت آبطهم رماحهم الطويلة. وكان هؤلاء يخضعون لقيادة ماهربال القائد الصارم الذى خدم هاملكار .

وبالقرب من طوابير المشاة كانت فصائل البلياريين (الرماة) خفيفة الحركة تتجول هنا وهناك . وكان هؤلاء الجنود بارعين للغاية فى استخدام نوع معين من الصواريخ يتكون من كرة نارية وآخر يتكون من كرة ثقيلة من الرصاص تستطيع تحطيم الدروع البرونزية .

كان الفرسان يشكلون الجزء الأكبر من الجيش الزاحف . وبينما كانت الفرق الافريقية تشكل خلاصة الجيش، فان الأسبانيين كانوا هم قلب هذا الجيش ، وقد انضم اليهم رجال من قبائل أخرى كثيرة يحملون أسلحة خفيفة . بينما تولى الايبريون حراسة المركبات

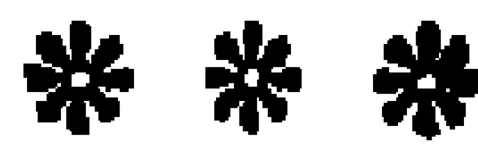
ولقد حرص هانيبال على تحميل مركبات كثيرة إضافية بالأسلحة والادوات الاحتياطية ، والحبوب والأدوية واحتياطى هائل من الفضة . .

وكجيش زاحف ، كان جيش هانيبال ينقصه النظام والترابط أما عدده فلم يكن ليقل عن خمسين ألف مقاتل وأربعين فيلا وهو عدد يكفى لتغطية جميع المطالب وتحمل أشق المكاره .

ولم يكن خلف هانيبال أحد من حملة الأعلام كما جرى العرف فى الجيوش القديمة ، ذلك لأن هذا القائد كان يحرص على التحرر من قيود القيادة ، ولهذا كان يندمج فى الجنود ويتحدث اليهم بلغاتهم القومية .

ولقد اثنى الأعداء على هذا الجيش اثناء مستطابا فيما بعد وقال المؤرخون أن جيش هانيبال استطاع أن يحتفظ بوحدته وتماسكه

سنة عشر عاما متوالية بغير أن يحدث بين رجاله تذمر أو تمرد برغم اختلاف الجنسيات التى كانوا ينتمون اليها . .



وعبر الجيش القرطاجنى الجرار نهر إبرو بغير أن يعوقه عائق.

وهنا حدث شيء غريب جداً ، ذلك أن هانيبال ظل يتسكع بجيشة ثلاثة شهور ونصف بين النهر ومعابر جبال برنيز ، وهى مسافة لاتزيد عل ١٨٠ ميلا ولا يستغرق قطعها أكثر من ستة أيام . . .

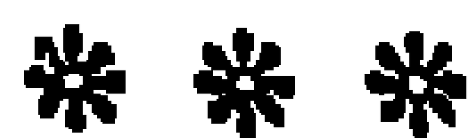
والواقع أن هانيبال لم يكن قد قرر بعد التوغل فى أوروبا لابعد مما فعل . وكان كل مايهمه فى ذلك الحين اخضاع ذلك الثلث الاخير من أسبانيا عبر نهر ابرو حيث يقيم البرابرة ، لأنه كان يعتقد أن اخضاع أسبانيا كلها لحكم قرطاجنة هو خير رسالة يؤديها لوطنه الأصلى . وكان يرى ضرورة فتح الطريق الساحلى فى وجه المواصلات وضمان الاستيلاء على المعبر الشرقى بجبال برنيز إذا أريد الدفاع عن أسبانيا . .

وكان قد ترك أخاه الأصغر هاسدروبال لتولى القيادة فى

قرطاجنة الجديدة والاشراف على حاميات الجنوب ، ومع أن هاسدروبال لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من العمر . إلا أنه كان عبقريا سريع البديهة ، حسن التصرف فى المآزق . . أما أخوهما الأصغر ، ماجو ، فكان جنديا باسلا يحظى بحب الجنود وولائهم التام . . وقد تركه هانيبال فى قرطاجنة الجديدة مع هاسدروبال

وكانت هيئة أركان حرب هانيبال مكونة من ضباط قرطاجنيين أهمهم ماهر بال وهانو والاخير ابن أحد كبار نبلاء قرطاجنة . وكان هؤلاء الضباط من المحاربين المحنكين الذين يتمتعون بالدهاء وسعة الحيلة علاوة على بغضهم الشديد لروما .

وإلى جانب هؤلاء جميعاً كان هناك جيش من الجواسيس والوكلاء الذين كانوا يجمعون المعلومات من مختلف موانىء البحر الأبيض . وكان هانيبال يعتمد عليهم اعتماداً كبيراً فى تقديراته لمختلف المواقف واتخاذ قراراته



وبينما كان جيش هانيبال يتحرك ببطء نحو جبال برنيز جاءه جواسيسه بأنباء زادت من قلقه اذ قالوا له إن أساطيل الغزو الرومانية كانت تتجمع فى سيراكيوز وبيزا

وبذلك أدرك هانيبال أن الرومان يعدون العدة لغزو أفريقيا ..

وفجأة ، حدث تغيير فى الجيش . ترك هانيبال فرقة قوامها ١٠٫٠٠٠ رجل لإخضاع شعوب نهر ابرو والموانىء ، وتقدمت قوات منها شمالا للاستيلاء على أقرب معبر فى جبال برنيز وهو معبر برنوس ، أما بقيـة الجيش فبدأت تتسلق التلال حيث تجمعت قبائل الباسك وراحت تراقب مايحدث ببهتة .

فما الذى أدى إلى حدوث هذا التغيير ؟

كان السبب هو ماوصل هانيبال من أن الرومان يعدون جيشاً لغزو أسبانيا . .

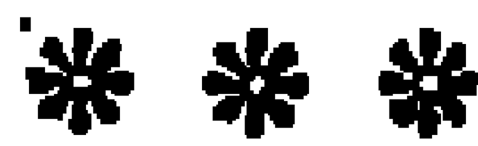
وقرر هانيبال أن يهاجم الرومان فى عقر دارهم رغم وثوقه من أن جيشه كان سيتعرض إلى كثير من المكاره والأهوال ..

ولكن خطته كانت تنحصر فى ضرورة حبس جيوش الغزو الرومانية بداخل إيطاليا نفسها وإبعاد الحرب عن قرطاجنة

وقبل أن يشرع هانيبال فى الزحف أعلن أنه لن يرغم أحداً على محاربة روما ، وإن من يريد من الجنود أن يعود إلى وطنه يستطيع أن يفعل ذلك بلاخوف من عقاب أو قصاص ..

وفضل عشرة آلاف جندى من الكلت العودة إلى ديارهم ، فأرسلهم هانيبال إلى هاسدروبال .

ثم بدأ الزحف . . فترك هانيبال ضابطاً ومعه قوة كافية لحراسة معبر جبال نهر برنيز ، والإبقاء على الطريق إلى أسبانيا مفتوحاً .



كان الشاطىء البعيد للنهر يعج بقبائل معادية أسرعت لمقاومة أية محاولة لعبور النهر .

وشـــعر الجيش الزاحف بالقلق ، فقد تساقطت الأمطار بغزارة ، بينما أشاعت كآبة الغابات الكثيفة الانقباض فى نفوس الجنود الأفريقيين والايبريين الذين اعتادوا القتال على أرض ممهدة وفى جو صحو . .

وبعد أن درس هانيبال موقف المدافعين على الشاطىء الثانى أمر بإحضار جميع أنواع القوارب من القرى المجاورة بعد دفع ثمنها لأصحابها حتى يتسنى للجيش عبور النهر . .

وأخيراً تمت الاستعدادات..فبعث هانيبال بهانو بن بوملكار ومعه طابور من فرسان ايبريا للصعود إلى مخاضة فى الرون

وعند ظهر اليوم التالى كانت الإجراءات قد اتخذت لعبور النهر ، إذ انبعث دخان أسود من ناحية الشمال فدل ذلك على أن هانو ورجاله عبروا النهر خفية بغير أن تراهم عصابات الغال المحاربة التى كانت تقف على الشاطىء فى الانتظار .. فأمر هانيبال بالنفخ فى الأبواق ، وفى التو اندفع جنوده نحو النهـــر وهم يطلقون صرخات عالية ، وعندئذ أخذ الغال يرددون أناشيدهم الحماسية ، ويلوحون برماحهم الطويلة فوق رؤوسهم

ولم يكن الغال قد تعرضوا لمثل هذا الهجوم من قبل . وعندما بلغ صياح المهاجمين أقصاه ، ودفع القرطاجنيون جيادهم نحو الماء تحت حماية الصواريخ ظهر فرسان هانو المسلحين من الغابة وراء قبائل الغال . . وفى بادىء الأمر هاجم الغال القرطاجنيين ولكن هؤلاء دفعوهم إلى الوراء عنـدما انقضوا عليهم بعد الهبوط من القوارب ، وهكذا أصبح الغـال بين نارين ، فأسقط فى يدهم ، ولاذوا بالفرار فى الطريق الوحيد المفتوح أمامهم ، وبذلك نجحت خدعة هانيبال واستطاع جيشه عبور النهر بغير أن يتكبد خسائر تذكر . .

وارتقى بعض جنود الاستكشاف أشجاراً عالية ثم قالوا إنهم يرون قمم جبال بعيدة على الأفق . .

ولم يضيع هانيبال وقتاً ، وأمر ضباطه بأن يعيدوا النظام إلى الفرق

وكانت المرحلة التالية هى عبور جبال الألب . .

وألقى هانيبال خطاباً حماسياً قال فيه أن عبور هذه الجبال ليس مهمة شاقة كما يتوهم الكثيرون ، وأضاف بأن النصر والمال والنساء فى انتظارهم على الجانب الآخر من الجبال بعد دحر الرومان والقضاء على جهازهم الحربى البغيض الذى يهدد أمن الجميع فى كل لحظة . .

وبدأ زحف الجيش مرة أخرى . . وبدلا من أن ينطلق هانيبال بجيشه شمالا ، مضى به بمحاذاة الشاطىء الشرقى لنهر الرون ومعه مرشدون من القرى . . ثم انثنى فى طريق جانبى يؤدى إلى جبال الألب . .

وفى تلك الأثناء صدر أمر من روما بوقف حشد الأسطول الذاهب إلى أفريقيا ، وإعادة الفرق التى كانت قد خصصت لغزو قرطاجنة إلى إيطاليا . . وتحت قيادة القنصل الثانى تيبريوس سمبرونياس لونجاس سارت هذه الفرق شمالا إلى نهر بو حيث كان من المتوقع أن يظهر هانيبال . .

*** 

ليست جبال الألب خطاً مستقيما من الجبال ولكنها سلسلة من الحواجز المتداخلة فى بعضها تتوسطها البحيرات فى أغلب الاحايين وترتفع إلى علو شاهق فى أكثر اجزائها حيث تكسو الثلوج قممها ومن العجيب أن الجبال متشابهة فى خصائصها فى معظم اجزائها . فإذا أردت تسلقها فإن عليك أولا أن تتسلق حافة خارجية إلى واد أعلى . ولما كان الماء يسلك دائماً أسهل الطرق إلى أسفل فإن الأنهار تجرى بكثرة فى هذه الجبال فإذا كنت غريباً فإن عليك أن تستعين بمرشد وإلا ضللت طريقك ، وبالتالى فقدت حياتك .

وقد حدث قبل مجيء هانيبال إلى جبال الألب ، أن هاجرت بعض الشعوب القبلية عبر جبال الألب ، ولا ريب فى أن الكلت المقيمين على طول نهر الرون يعرفون كل شيء عن أقرب المعابر وأكثرها أمنا . . ولكن التاريخ لم يسجل أن جيشاً من الأجانب عبر الجبال قبل ذلك العهد ..

كان جيش القرطاجنيين يتألف من ٣٠٫٠٠٠ من المشاة و ٨٠٠٠ فارس علاوة على قافلة طويلة جداً من المركبات وحوالى ٣٧ فيلا .

ولم يواجه الجيش مشكلات صعبة فى مراحل التسلق الأولى ،

إذ كانت الصعوبة الرئيسية كامنة فى عبور قمة الجبل والهبوط إلى أول تل ، وهى مرحلة تستغرق حوالى يومين .

وكانت هناك مشكلة أخرى ، وتلك هى العمل على أبقاء الطريق مفتوحاً فيما وراء البرنيز حتى الأنهار الإيطالية ، وإلا أمكن فصل جيش قرطاجنة تماماً عن قاعدته فى اسبانيا .

وبرغم الجهود التى بذلها المؤرخون ، فإن أحداً منهم لم يستطع أن يحدد الطريق الذى سلكه هانيبال فى عبور جبال الألب ومعه هذا الجيش الجرار .

وفى طريقه إلى جبال الالب مر هانيبال وجيشه بعشرات من القرى والجزر فى وادى الكلت ، فتزود منها بالثياب الصوفية اللازمة لجيشه ، والادلاء الملمين بمسالك الجبال ومعابرها . . وكان لا يفتأ يترك فصائل من الجنود على طول الطريق حتى يؤمن طريق جيشه فيما إذا اضطر للتراجع .

ومن عجب أن هانيبال لم ينثن بجيشه يمينا فى اتجاهه إلى الالب وإنما انثنى يساراً . ثم شرع يتسلق حافة الجبل حيث يقيم الكلت الجبليون ، ولم يكن من شك فى أن هؤلاء القوم لا يعرفون شيئاً عن الجيش القرطاجنى أكثر من أنه يحمل معه ثروة من الحضارة

وجياداً وسلعاً وفضة كثيرة . . وقد وقف هانيبال وضباطه يتأملون الموقف أعلاهم ، ثم صدر الأمر للجيش بالتوقف عن التقدم ، فقد كان آخر ما يفكرون فيه هو مهاجمة البرابرة على حافة الجبال . . ومن ثم أوفد هانيبال بعض المتحدثين باسمه من أهالى السهول مع بعض قدماء المحاربين للمفاوضة .

وعاد الرسل وقرروا أن المدافعين عن الجبل من البرابرة الأشـــداء وأنهم اعتادوا امتشاق السلاح بالنهار والعودة إلى مدينتهم بالليل . .

واضطر هانيبال إلى انتظار هبوط الظلام على مضض فإذا كان الليل أصدر أمره بأن تبقى نيران التدفئة مشتعلة على أن يبادر الجيش باستئناف التقدم .

وتولى المرشدون توجيه الجيش إلى حيث كان البرابرة يعسكرون أثناء النهار ، وأخذ الزاحفون يتحسسون طريقهم فى الظلام بحذر شديد .

وقبل طلوع شمس اليوم التالى عاد البرابرة إلى معسكراتهم فوجدوها مكتظة بالجيش القرطاجنى ، فتولاهم الفزع ولاذوا بالفرار إلى الوادى الأسفل .

وبدأ الجيش يهبط من القمة وكان يقضى على كل مقاومة يلقاها فى طريقه إلى أن وصلت طلائعه إلى مدينة البرابرة فالفاها مهجورة ولكنه عثر فيها على مؤن وحبوب تكفى لاطعام جيشه وحيواناته ثلاثة أيام .

وضرب هانيبال معسكره فى هذه المدينة . ولكنه لم يشأ البقاء طويلا فى هذا الوادى عند منتصف الطريق ، ومن ثم استأنف الجيش تحركه فى اليوم التالى ، فإذا كان اليوم الثالث رأت طليعة الجيش مجموعات من أشخاص يرتدون ثياب الحيوانات ويلوحون بأغصان الاشجار دلالة على إنهم قوم مسالمون . وقد عرض هؤلاء على هانيبال أن يبيعوه ماشيتهم وأن يتولوا إرشاد الجيش إلى الطريق . وقبل القرطاجنيون هذه العروض بتحفظ .

وبعد يوم آخر وصل الجيش إلى نقطة تمكنه من رؤية قلعة الالب من أعلى قمة فيه . .

وكان البرد قد أشتد إلى درجة تكاد تجمد الأطراف . وأشتد الاعياء بالجنود ، ولكن هانيبال رأى أن يستمر الجيش فى تقدمه .

وبعد أهوال كثيرة وصل الجيش إلى المعبر فى اليوم التاسع من بدء زحفه . . وهنا أمر هانيبال بالتوقف عن التقدم لمدة

يومين ريثما يستريح الجنود . وخلال هذين اليومين مات معظم الذين اصيبوا بالمرض أثناء الزحف .

وفى صباح اليوم الثالث صحا الجو ، وتهيأ الجنود المسيروهم يشعرون بأن أطرافهم قد تجمدت بسبب شدة البرد .

واستدعى هانيبال قواد مختلف الفرق وصعد بهم فوق صخرة عالية ، وراح يتطلع ناحية الشرق فرأى أسفل الجبل غابة وحقولا خضراء تتألق كالجواهر على البعد . إنها حقول إيطاليا .

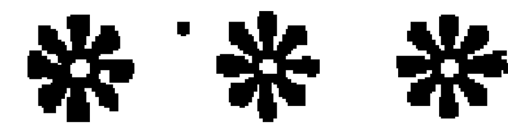
وافتر ثغر هانيبال عن إبتسامة ثم قال :

ليست هذه جدران إيطاليا فحسب ، ولكنها أيضاً جدران روما . وهناك . فى هذا الوادى توجد المدن الغنية العامرة بالنساء وكل ما عليكم أن تفعلوه هو أن تذهبوا إلى هناك .

وحمل القواد رسالة هانيبال إلى رجالهم الذين انهكهم الاعياء، وسرعان ما انتقلت القصة من فم لآخر إلى أن بلغت صفوف المؤخرة .

كان الكل يقول : لقد انتهت المتاعب . . ونحن ذاهبون الآن إلى المدن العامرة حيث يوجد اللحم والخبز والدفء . . والغنائم الذهبية و . . ونساء يملأن لنا الشراب !

وتحرك الجيش وراءه أمل جديد .



لم يكن هبوط الجبل سهلا كما تصور الجنود نظراً لأن الثلج كان يكسو الأرض . واستغرقت عملية الهبوط ثلاثة أيام كاملة .

وأخيراً دخل الجيش الغابة . . فأشعل النيران للتدفئة وترك الحيوانات ترعى بعد أن ظلت ثلاثة أيام بلا طعام .

وهكذا عبر هانيبال وجيشه جبال الألب الشاهقة فى خمسة عشر يوماً . . ولكن الجيش فقد كثيراً من رجاله فى هذه المغامرة إذ لم يتبق منه غير ١٢٫٠٠٠ افريقى من الشاة و ٨٠٠٠ من الاسبانيين و ٦٠٠٠ من الفرسان،أى ٢٦٫٠٠٠ جندى ساروا فى أثر هانيبال على طول مجرى الماء المؤدى إلى نهر البو .

وعندما بلغوا أول مستعمرة للغال على سفح التل لم يجدوها كما كان يتوقعون .

مناوشات :

لاريب فى أن هانيبال بهت عندما تبين ما كان فى انتظاره على أثر دخوله مدينة كازالبين فى شهر نوفمبر عام ٢١٨ . . فانه لم يجد أثراً لا عدائه البوى والانسوبر ، وكانت أقرب القبائل تستمد

لقضاء فصل الشتاء فى مدنها ، ورسم الخطط لتسوية منازعاتها بعد انقضاء فصل الشتاء

وكانت روما قد عمدت إلى تقوية نشط حامايتها على طول النهر الكبير أسفل التل . . وراح الغال يتجمهرون فى طريق هانيبال وجيشه وهم يستعرضون اسلحتهم ويتطلعون إلى القرطاجنيين فى فضول ظاهر وعداء واضح .

وكان رد الفعل عنيفاً فى نفوس القرطاجنيين ، فقد أغضبهم هذا العداء السافر،فاكتسحوا مدينة الغال الرئيسية تورين،وطردوا أهلها منها .

وبعد أن سمح هانيبال لجيشه براحة قصيرة تأهبا للقتال ، بادر فقاد الجيش غربا عبر مجرى الماء فى اتجاه ميلانو ومدن البوى والانسوبر.وكان المطر ينهمر بغزارة فراح القرطاجنيون يتلمسون طريقهم بحذر فى تلك الأرض الغريبة . . فلما اقتربوا من نهر تسينوس اكتشفوا أن جيشاً رومانيا كان قادماً نحوهم على نفس شاطىء النهر .

***

لم يضيع بابليوس كرونيليوس سبيو وقتاً فى ملاقاة هانيبال مرة أخرى . فبعد أن ترك القنصل الرومانى حملته عند الرون ،

نزل إلى بيزا وشق طريقه شمالا لمقابلة الفرق التى كانت فى طريقها لوضع حد لمشاغبات الغال .

ولعل بابليوس والرومان عموما لم يكونوا يتوقعون نجاح القرطاجنى الشاب فى تخطى الألب بجيشه فى هذا الفصل . وعلى كل حال ، كان من واجب القنصل أن يغلق الطريق فى وجه القائد القرطاجنى إذا حاول عبور جبال الألب، ومن ثم أسرع بابليوس نحو المعابر ، فعلم أن هانيبال استطاع الوصول إلى نهر بو المكشوف

واستولت الدهشة على بابليوس ، ولكنه بادر فانثنى بجيشه شمالا على طول نهر تيسينو إلى حيث مصبه فى نهر بو العظيم ، فقد كان من حسن الفطنة أن يبادر بلقاء هانيبال بعد أن ثبت أنه ثعلب ماكر يستطيع الافلات من المآزق ببراعة لا نبارى .

انطلق بابليوس بجيشه إلى الشمال فى حذر شديد . ، وعندما استدعى ضباط أركان حربه لعقد مؤتمر أخير ، قال لهم :لا تظنوا أن قائد العدو شجاع لأنه عبر جبال الألب بجيشه فانه إنما فعل ذلك رغماً عنه خشية النتائج التى كانت ستترتب على امتناعه عن العبور ولا تنسوا أن هذه المغامرة كلفته أرواحا كثيرة ، كما أن جنوده لاتزال تعانى من آثار البرد ونقص الطعام ، أما جيادهم فقد هزلت

ولهذا فان من حسن حظ الرومان أنكم تمتازون عن العدو بالنشاط والحيوية .

ان ما قاله بابليوس كان قريباً من الحقيقة .. ولاريب أنه كان على علم بحقيقة جيش هانيبال .

والواقع أن هانيبال كان يشعر بقلق شديد فى ذلك الحين لأنه لم يسبق له أن واجه الفرق الرومانية . . وعلاوة على ذلك فان سبيو كان يتمتع بميزة هائلة وهى وجود احتياطى لاينفد من القوة البشرية فى جمهورية روما البالغ تعداد القادرين على حمل السلاح فيها ٧٧٠٫٠٠٠ شخص على أقل تقدير . . أما هو ، أى هانيبال بن هاملكار ، فلم يكن له مايسانده فى إيطاليا بعد أن أغلق الثلج جميع ممرات الألب وقطع الرومان طريقه إلى جبال رينز ؛ وعلى كلا جانبيه البحر الذى يسيطر عليه عدوه . . وهكذا أصبح جيشه محاصراً فى إيطاليا لا سبيل للاتصال بينه وبين قرطاجنة أو أية دولة أخرى صديقة .

وفى وادى نهر البو ألفى القرطاجنيون أنفسهم فى موقف غامض وبالأخص لأن حلفائهم المرتقبين ( الغال ) لم ينضموا اليهم . . . وهنا قال هانيبال لقواد جيشه عبارة مأثورة : هناك شىء واحد محقق ، ذلك أننا لانستطيع العودة من حيث أتينا .

ولجأ هانيبال إلى خدعة فريدة لرفع الروح المعنوية بين جنوده.

أمر باحضار مجموعة من أسرى الغال الذين امتازوا بالوحشية فى القتال . وكانوا مكبلين بالأغلال وقد تمزقت ثيابهم وعلتها القذارة . والقى الضباط بمجموعتين من الأسلحة الثمينة أمام الأسرى ودرعين . وقال هانيبال أنه سيدع كل اثنين من الأسرى يشتبكان معاً فى العراك فمن قتل غريمه فانه فاز بالحرية والسلاح . .

ورأى الأسرى فى هذا العرض فرصة محتملة لاستعادة حريتهم ، وعندما فكت أغلال اثنين منهم اشتبكا فى قتال وحشى رهيب ، بينما راح القرطاجنيون يراقبونهم باهتمام وحماس ، إلى أن سقط أحدهما يتخبط فى دمه . ومع ذلك ظل المهزوم يقاتل فى استماتة حتى لفظ أنفاسه الأخيرة . .

وفهم جنود الجيش مغزى هذه الظاهرة . كان عليهم أن يقاتلوا حتى ينتصروا أو يموتوا . .

وفى تلك الليلة أخذ الضباط يتجولون فى المعسكر وهم يرددون رسالة من هانيبال للجنود .

« من اليوم سيتمتع الجنود من جميع الجنسيات بنفس الامتيازات

التى يتمتع بها القرطاجنيون وجميع الأرقاء الذين سيرافقون سادتهم هنا، سوف يحصلون على حريتهم بعد أن يدفـــع هانيبال ثمنها للسادة».

وهكذا أصبح جميع الجنود متساوين بداخل الجيش.

وقطع هانيبال على نفسه عهداً جديداً لجنوده. قال لهم إن الجنود الذين يرغبون فى العودة إلى ديارهم سوف تتحقق رغبتهم بمجرد إحراز النصر فى إيطاليا..

وذات صباح كثيف الضباب وجد الجيشان نفسهما وجهاً لوجه على شاطئ نهر تيسينو... فتحركت الفرق الرومانية المنظمة إلى الامام أوتوماتيكياً متهيئة للقتال، بينما أخذ الفرسان أماكنهم على الجناحين لحمايتهم. وتحركوا نحو الكتلة غير الواضحة من القرطاجنيين ولكنهم لم يتقدموا بعيداً.

ذلك لأن فرسان الكلت والبرابر ظهروا على الجانبين البعيدين وتحركت كتل سريعة منقضة على الرومان الراكبين.. وكان هذا هو كل شىء..

فقد كان الافريقيون يتفوقون على الفصائل الرومانية من الناحية العددية، فلم تستطع مقاومة هجومهم.

وسقط القنصل الرومانى نفسه جريحاً بين فرسانه . . . ويقال أن ابنه أنقذه من الموت فى آخر لحظة .

وبرز النوميديون بغتة ؛ وكانوا يقومون بحركة التفاف حول فرق المشاة الرومانية ، ، وفجأة لمعت حراب النوميديين . . وهنا أصدر مساعد بابليوس أمراً يدل على الحصافة بعد أن تأكد من أن الجيش فقد تأييد جناحيه . ، وكان هذا الأمر يقضى بانسحاب قوات المشاة إلى معسكرها . . . وفعلا تراجعت الفرق الرومانية وهى تحمل جرحاها معها . . وتبعهم الأفريقيون مسافة قصيرة ، ثم كفوا عن ملاحقتهم .

كانت هذه مناوشة غريبة . . وكان من الواضح أن هانيبال لم يشأ أن يخوض معركة حاسمة مع الرومان لأمر فى نفسه .

وهو حينما فعل ذلك ظفر بأول فرصة لدراسة خصائص الفرق الرومانية عند القتال لما أثر عن رجالها من صلابة عود ونظام صارم فى ميدان المعركة .

كانت الفرقة الرومانية المقاتلة تتألف من ٦٥٠٠ من المشاة وحوالى ٤٠٠ فارس ، بينما توجد على جناحيها قوات أخرى من حلفاء الايطاليين . .

وأدرك هانيبال أن فى هذا النظام تكمن قوة جهاز روما الحربى .. فقد تدربت الفرق المقاتلة على الاحتفاظ بنظامها مهما كانت الظروف ..

وأدرك هانيبال أيضاً أن هذه الفرق لاتستطيع أن تفعل شيئاً لم تتدرب عليه ، إذ أنها كانت تعتمد على الأوامر التى تصدر لها — أى على مايراه قوادها ، . فماذا يستطيع هؤلاء القواد أن يفعلوا إذا واجهوا موقفاً غريباً تماما عليهم؟ وماذا يكون تصرفهم إذا خدعوا فارتكبوا خطأ ؟

## طموح تيبريوس سمبورويناس :

استطاع هانيبال أن يحقق أشياء كثيرة فى تيسيتو ، فقد استرد النوميديون الأشداء ثقتهم فى أنفسهم عقب مواجهة الرومان بعد أن نكل بهم هؤلاء عند الرون ، ودرس هانيبال أيضاً الفرق الرومانية المنظمة أثناء القتال لمدة ثلاثة أيام كاملة ، وأهم من هذا كله ما فاز به القرطاجنيون من هيبة فى أعين الغال ، فقد أوفدوا مندوبين لمراقبة إنسحاب الأعلام الرومانية أمام القرطاجنيين .

وفى تلك الليلة تمرد ٢٠٠٠ جندى من الغال الذين يعملون

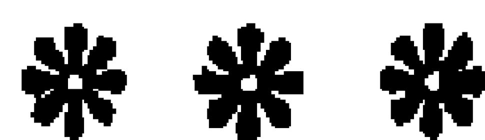
فى صفوف الرومانيين وبعد أن قتلوا ضباطهم وسرقوا جياداً نافعة ، هربوا من المعسكر وسعوا إلى هانيبال ، وعرضوا عليه الإنضمام لجيشه ، فقدم لهم لحماً وخمراً وهدايا من الفضة واقترح عليهم العودة إلى قراهم لكى يشرحوا لسكانها إن الغنائم والشرف فى إنتظار كل من يرغب فى طرد الرومان من وطنه ، واحتفظ هانيبال ببعض من توسم فيهم الجرأة والنفع ، لكى يعودوا إلى زملائهم الباقين فى معسكرات الرومان ، ويحدثوهم بما قال ، ويعودوا اليه ليبلغوه بما يحدث فى تلك المعسكرات، وبذلك أنشأ هانيبال نواة للجاسوسية .

وبعد معركة تيسينو بوقت قصير أقبل متحدثون باسم البوى، وألقوا خطابات مطولة رحبوا فيها بهانيبال وقدموا له ثلاثة من الأسرى الرومان برتبـــة قائد منطقة . ورد هانيبال التحية باحترام واقترح احتفاظ البوى بالرهائن ومبادلتهم بعدد من أسرى الغال الموجودين لدى الرومان .

وفى الوقت ذاته أطلق هانيبال سراح الجنود الغال الذين أسرهم النوميديون بدون فدية وطلب اليهم العودة إلى ديارهم وشرح ماراوا ( كان هؤلاء الأسرى أول من أطلق هانيبـــال

بسراحهم على ذلك النحو غير المرتقب لكى يتولوا الدعاية له فى إيطاليا ذاتها ) .

وقد كان لهذه الخطة الحكيمة أثرها الفعال ، إذ عاد بعض هؤلاء الأسرى إلى هانيبال ليبلغوه إن جيشاً رومانياً آخر يقترب قادما من الجنوب ، ولكن القرطاجنيين لم يظهروا أى فزع أمام هذه الأنباء واستمروا فى الاستعداد للخطوة التالية .



انتخبت المجالس الشعبية القنصل الثانى تيبريوس سمبرونياس لونجاس ، وكان رجلا طموحاً حقق بعض النجاح حينما استولى على جزيره مالطة وأغار على الساحل الأفريقى . وقد جعله هذا النجاح يزداد ثقة بنفسه ، فقرر أن يزحف لملاقاة القرطاجنيين نكاية فى زميله الفاشل القنصل بابليوس كورنيليوس

وعندما التقى تيبريوس بكورنيليوس ألقاه جريحاً وملازماً للفراش عند خطوط الجيش الرومانى فى بلاسنتيا وهى نقطة الحراسة الخارجية على نهر بو .

ولم يبد كورنيليوس أية رغبة فى العودة إلى منازلة هانيبا

متذرعا بأن جنوده فى حالة يرثى لها من الاعياء ، وأضاف بأن هؤلاء الجنود يستطيعون حراسة الخط من بلاسنتيا الى كريمونا بأمان خلال فصل الشتاء ريثما يجىء المدد فى الربيع .

ولم يرتح القنصل تيبريوس لحديث زميله ، وأغضبه أن يترك الافريقيين يعيثون فى إيطاليا نفسها فساداً .

والواقع أن هذا الحوار دار بين الزميلين فى شهر ديسمبر وهو الشهر السابق على إجراء انتخابات القنصلين فى روما حسبما جرت عليه العادة فى كل عام ، ولهذا كان تيبريوس يخشى أن ينتخب الشعب الرومانى قنصلا غيره إذا لم يحرز نصراً حاسماً على هانيبال .

واستطاع تيبريوس أن يقنع زميله كورنيليوس بضرورة استئناف القتال ، ولما كان الأخير جريحاً عاجزاً عن الحركة فقد وافق على أن يتولى تيبريوس شئون الجيش .

وحانت لحظة العمل بأسرع مما كان تيبريوس يترقب ، فقد اقتحمت قوة استكشاف رومانية راكبة مراعى النوميديين ، وتعقبتهم إلى مكان الفرسان القرطاجنيين. وتحرك الفرسان الرومانيون

لتأييد قوة الاستكشاف ، وقاد تيبريوس فرقتين من فرق مشاته خارج بوابة المعسكر وتحدى القرطاجنيين للقتال ، ولكن هؤلاء تراجعوا إلى ماوراء نهر تربيا مما أقنع القنصل الرومانى بأن الفينيقيين المراوغين قد لايستطيعون الصمود أمام فرقه المشهورة .

وهطل المطر والثلج بغزارة فى ذلك الحين، فحال دون القيام بأية عمليات حربية : فأغاظ ذلك تيبريوس وانتظر تحسن الطقس على مضض .

وذات ليلة أيقظ تيبريوس بعض ضباطه فى ساعات الليل الأخيرة، وأبلغوه أن النوميديين يهاجمون إحدى بوابات المعسكر ونظراً لأنه أوقظ من نومه فجأة ، فإنه لم يتريث ليتساءل لماذا ظهر القرطاجنيون فى هذه الساعة ، وبادر فأصدر أمراً لجناحى الفرسان بالركوب والانطلاق ، كما أمر فرق المشاة بالتشكيل تحت السلاح فى شوارع المعسكر ، وذهب بنفسه ليشرف على حمل الأعلام ، وفى الخارج كان الثلج كثيفاً والبرد قارساً .

## معركة فى الثلج :

فيما بعد قال المؤرخون عن هانيبال : « إنه لم يشعر يوماً بأنه أجرى مافيه الكفاية لاعداد رجاله . وقد اتضح فيما بعد أن هانيبال

بدأ استعداداته لهذه الليلة المشهودة على نهر تريبيا قبل ذلك بوقت كاف بعد أن غربل المعلومات التي جاءه الجواسيس بها عن معسكرات الرومان وكون لنفسه رأيا فى نيبريوس . ثم خرج بنفسه لدراسة الوادى الذى غمرته المياه على جانب النهر الذى يعسكر القرطاجنيون عنده وما يحيط به من تلال صغيرة بينها ممرات ضيقة .

وكان الضابط ماجو يرافق هانيبال اثناء هذا الجولة الاستطلاعية فطلب هانيبال منه إن ينتقى عشرة رجال من مختلف الوحدات ممن يمكن الاعتماد عليهم فى أسوأ الظروف ، ثم يختار كل من هؤلاء الرجال مائة رجل موثوق بهم ، على أن يتولى ماجو قيادة هولاء الرجال الألف الأشداء،وأن يتخذ ماجو ورجاله أماكنهم فى أحد الممرات الاستراتيجية الضيقة .

وقال هانيبال ضاحكا : إن أحدا لن يفكر فى البحث عنكم هنا !

ثم أصدر لماجو بعض تعليمات تفصيلية . .

وعلى بعد نصف ميل من الممر الضيق ، وفى اتجاه المعسكر القرطاجنى، كان هناك واد يغطيه الطين وينحدر إلى أعلى انحداراً خفيفاً نحو أرض صلبة . وهنا راح هانيبال يشرف على حفر

خندق وتغطيته بحيث لايستطيع أحد أن يتبينه من بعيد . وذلك عملا بالقول المأثور الذى سمعه من أبيه أثناء طفولته وهو « دع الارض تقاتل من أجلك » .

وبعد أن سار خمسمائة من النوميديين إلى معسكر الرومان ، وذهب ماجو برجاله الالف إلى الممر الضيق فى تلك الليلة ، قال هانيبال لضباطه ،

بعد غد ستفتح الطرق المؤدية إلى المدن اللاتينية . فهل تعتقدون أن هذه المدن عامرة بالثراء الذى سمعنا عنه؟أم أن الامر لايعدو مجرد شائعات ؟

فأجاب القواد الكبار بأنهم يعتقدون أن ذلك حقيقة لانزاع فيها .

فقال هانيبال : اذن قولوا ذلك لرجالكم . .

وفى تلك الليلة التى ساءت فيها الأحوال الجوية إلى أقصى حد قرر هانيبال بن هاملكار أن يبادئ فرق المشاة الرومانيةبالهجوم بعد أن بذل قصارى جهده ليجعل أرض المعركة نفسها قاسية على الرومان ، معاونة لرجاله .

وعندما صدر الامر ، تحرك الأيبريون والليبيون بأسلحتهم

فى اتجاه الخندق المعد ؛ وهناك تدثروا بمعاطف من جلد الماعز بينما أوقفت الفيلة ورجالها على جانبي فرق الفرسان .

وقد عرف ماجرى بعد ذلك بمعركة تريبيا ..

كان على المشاة الرومان الذين تبعوا الفرسان الذين طاردوا الفرسان النوميديين المراوغين أن يشقوا طريقهم فى الظلام عدة أميال،ولم يكن الجنود الرومان قد تذوقوا أى طعام قبل خروجهم المفاجئ للقتال فى ذلك البرد القارس . وفضلا عن ذلك فإنهم لم يستطيعوا معرفة الاتجاه الذى كانوا يسيرون فيه فيما يشبه الظلام وبعد أن قطعوا ميلا آخر ، وجدوا المشاة الأفريقيين فى انتظارهم خلف حاجز قليل الارتفاع من الأرض.ومن خلف هذا الحاجز بدأت الأحجار تتطاير من مقاليع البليارييين .

أما مافعله المشاة الرومان فغير واضح تاريخيا؛إلا أن هزيمتهم بدأت فى مكان آخر على الجناحين حينما تراجع الفرسان الرومان منذ عرين أمام الفيلة المهاجمة ، وتفرقوا أيدى سبا بينما اندفع بعضهم فى خطوط زملائهم المشاة فأشاعوا فيها الفوضى والاضطراب ، ولكن خطوط المشاة الرومان لم تنكسر،وانما تقوست إلى الوراء فيما يشبه القوس .

وحينما انتصف الصباح زاد جوع القوات الرومانية فزادذلك من اعيائها . وعلى أثر ذلك واجهت هذا القوات العدو من ثلاثة جوانب وفى الوقت ذاته برز ماجو ورجاله الالف من مخبأهم وألقوا بأنفسهم على مؤخرة الفرق الرومانية .

وفى تلك الأثناء راح ضباط فرق المشاة الرومانية يطالبون الجنود بتشكيل الطوابير حتى يمكنهم كسر الحصار ..

وانتهت المعركة بعودة ١٠٠٠٠ جندى رومانى إلى معسكراتهم بينما فقد أكثر من نصف الجيش الرومانى بين هائم على وجهه فى الثلج المتساقط وأسير وقتيل . وكان أول إجراء اتخذه هانيبال مع أسرى حلفاء الرومان هو إطلاق سراحهم ليعودوا إلى ديارهم ولكنه استبقى الأسرى الرومان رهائن للحصول على الفدية .

وبعث القنصل تيبريوس بتقرير غامض إلى مجلس شيوخ روما قال فيه أن جيشه التحم مع القرطاجنيين فى معركة ولكن سوء الأحوال الجوية حال دون حصوله على النصر ..

وأجريت الانتخابات فى يناير ، ولم ينتخب تيبريوس بعد أن تبين أنه عارض نصيحة زميله الجريح القنصل بابليوس كورنيليوس وأقدم على القتال من تلقاء ذاته .

وعندما شفى بابليوس طلب الآذن له بتولى قيادة جيشه فى أسبانيا ، ولم يكن ذلك خوفاً منه من ملاقاة هانيبال المجنون ، كما أصبح الرومان يطلقون على القائد القرطاجنى العظيم ، وانما لايمانه بأن غزو أسبانيا سوف ينهى متاعب الدولة الرومانية. فوافقه مجلس الشيوخ على رأيه .

## معسكر الشتاء على نهر بو :

قضى القرطاجنيون شهرين من الشتاء فى منازل مسقوفة، وكانت تلك أول راحة حقيقية يحصلون عليها فى زحفهم منذ وقعت أبصارهم على جبال برينز . . وقد وزع هانيبال على جنوده الغنائم التى استولوا عليها .

وكان أهم ماظفر به هانيبال فى معركة تربيا هو قيام تحالف وثيق بينه وبين الغال ؛ إذ جاءته جموع كبيرة منهم من جميع المدن الواقعة على نهر بو ، كما جاء رؤساء قبائل ليجوريا المتوحشة من الشاطئ الغربى ، فرحب هانيبال بهم ايما ترحيب وأقام لهم الولائم الباذخة . .

وأقسم الجمع يمين الولاء لهانيبال. ولكنه قال لهم أن تحالفهم يجب ألا يكون معه ، وانما مع قرطاجنة ، ولو أنه تعهد بحماية أراضيهم وعدم المساس بها .

ووافق رؤساء قبائل الغال على التعاون مع هانيبال للتحرر من الحكم الرومانى واستعادة حرية بلادهم ، وطالبوه بالشروع فوراً فى مهاجمة الرومان. ولكنه استمهلهم ريثما ينتهى فصل الشتاء.

وهكذا استطاع هانيبال أن يضيف إلى جيشه ما بين ٩٫٠٠٠ ، ١٤٫٠٠٠ رجل من المقاتلين الأشداء ، بالإضافة إلى قاعدة جديدة فى وادى نهر بو . وأصبحت حامية الرومان الموجودة فى بلاسنيتا وكرمونا منعزلة عن ايطاليا .

ومع أنه كان من مصلحة هانيبال البقاء فى بلاد الغال ، إلا أن البرد القارس فى شمال ايطاليا فضلا عن موت كثير من الفيلة بسبب البرد ، جعله يؤثر عدم الركون إلى الجمود والانتظار .

وقد ذاعت فى تلك الأحايين قصص غريبة عن هانيبال نفسه فقيل أنه كان يحتفظ بعدد من الباروكات ( الشعر المستعار ) مختلفة الألوان ، ومجموعات منوعة من الثياب ، كان يتنكر فيها كلما أراد التجول للاستطلاع أو الدراسة . وهناك من قال أنه كان يفعل ذلك خوفاً من الاغتيال .

وأثناء بقائه على نهر البو فى شهر مارس ذاك ، جاءته أنباء

مقلقة ، حملها الجواسيس فقد أبلغوه إن هناك شائعات تقول أن جيشاً رومانياً كبيراً نزل فى أسبانيا . .

وكان هانيبال يعلم أن الرومان لن يستسلموا للهزيمة . وأنهم لاريب بسبيل تعبئة جيوش جرارة للقضاء عليه . ولعل هانيبال نطق بقوله المأثور « إذا حصلت على نصر فحتى أعداؤك يقفون إلى جوارك ؛ أما إذا حاقت بك الهزيمة فحتى أصـــدقاؤك يتخلون عنك » .

ولهذا سار هانيبال جنوباً ومعه قوات الغال لملاقاة جيوش روما وقد كلفه هذا الزحف المبكر قبل انتهاء فصل الصيف ثمناً غالياً . .

## اجتياز المستنقعات :

تسير سلسلة جبال ابنين بانحراف عبر شبه الجزيرة الايطالية ، ومن الساحل ، فوق جنوه ، تنحرف هذه الجبال إلى الشرق فى جنوب شبه الجزيرة حتى تلامس الشاطىء الآخر تقريباً من البحر الادرياتيكى ؛ وتهيىء الوديان الضيقة معابر خلال هذه الجبال التى تستمر فى سيرها متماسكة حتى طرف ايطاليا . .

ولقد كان فى استطاعة القرطاجنيين أن يسلكوا أطول وأسهل طريق إلى روما بالسير بمحاذاة سلسلة الجبال وعبورها على مقربة من روما ولكنهم لم يفعلوا ذلك وإنما مضوا إلى الجنوب عبر سلسلة الجبال . .

وهكذا تعرض جيش هانيبال لمحنة شبيهة بمحنة اجتياز جبال الألب . وكان أول وادى دخله الجيش يؤدى إلى قمة عالية غطتها الثلوج وهطلت عليها أمطار حالت دون استمرار الجيش فى تقدمه فاضطر إلى التراجع وعبور الجبال من نقطة أخرى ، فاستطاع هذه المرة أن يصل إلى المنحدرات الغربية ، ولكنه وجد أمامه مستنقعات كثيرة شاسعة .

ولم يتوقف هانيبال ريثما يعثر على طريق جاف وإنما أمر جنوده باجتياز هذه المستنقعات وكانت غلطة كبيرة كلفته ثمناً باهظاً . . فقد أصيب كثيرون من جنوده بالملاريا ، كما أصيب بها هانيبال نفسه . وماتت الفيلة . .

وعندما تجاوز الجيش منطقة المستنقعات إلى واد فسيح أطلق القرطاجنيون عليه اسم « وادى الضوء » كان الإعياء قد بلغ من رجاله مبلغاً عظيماً . .

وأعان أن هانيبال يعانى من صرع خطير ، وأن عصب أحدى عينيه قد مات ولهذا فقدت هذه العين قوة إبصارها .

وعندما شفى هانيبال من حمى الملاريا عاد إلى امتطاء صهوة جواده وقيادة الجيش وسار القرطاجنيون إلى نهر آرنو فلما بلغوه توقفوا فى انتظار الجوسيس . .

وجاء هؤلاء ليقولوا لهانيبال أن الوديان الموجودة أمام جيشه تصلح لرعى جياده ، كما أن بحقولها محاصيل وفيرة . أما سكانها فليسوا من المحاربين أو الراغبين فى الحرب ، إلا أنه يوجد ، عند التلال الغربية ، على مبعدة ستة أميال تقريباً ، جيش رومانى يترقب وصول جيش هانيبال . .

وزاد هانيبال من سرعة طوابيره ، ومضى جنوباً ليمر بالرومان عند ملتقى التلال وكان هذا الطريق يؤدى إلى روما .

ومرة أخرى ، لم يجد القرطاجنيون فى أراضى اتروسكان القديمة ما كانوا يأملون فيه .

# الفصل الثالث

## من تراسيمينو إلى كاناى

«لم آت لأحاربكم»

إن الأمم لا تموت كالإنسان فى لحظة واحدة ، لأن لها لغتها ، وطريقة أدائها للأشياء ، ودينها ، وفوق كل شيء غايتها التى تدفعها قدماً إلى الامام . ومن ثم فإنها - حتى إذا قهرها غيرها - لا تندثر إلا إذا فقدت الدواعى السالفة فقداناً تاماً .

كانت أمة اتروسكان القوية واسعة الخيال قد اختفت من عالم الوجود قبل مجيء هانيبال بوقت غير طويل ، وسادت اللغة اللاتينية سهولها وأصبحت مدنها خاضعة للقوانين اللاتينية

ولكن حضارتها لم تمت إذ اقتبس الرومان الكثير منها كبناء الكبارى والخزانات المائية وغيرها . بل إن تنظيم الفرق الرومانية المحاربة كان مطابقاً لما كانت عليه فرق الاتروسكانيين

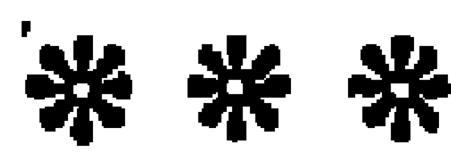
ومن ثم فلاريب فى أن هانيبال ما كاد يدخل أول مدينة من مدن الاتروسكانيني حتى لاحظ علامات قاطعة فى الحمامات والمسارح على الثقافة التى غابت عن عينيه منذ ترك قصور ايبريا ، ومع ذلك فإنه لم يقابل بالترحاب من الموظفين القلائل الذين كانوا فى انتظار قدومه برغم أنه قال لهم « إننى لم آت لأشن حرباً عليكم لأن هدفى هو القضاء على السلطة الرومانية ، وتحريركم من هذه السلطة » . فأجابوه بكلمات مطاطة باللغة اللاتينية ، وبعثوا بتقرير إلى روما قالوا فيه أن جيش الغزاة لايتكون من أفريقيين فقط وإنما يضم جنوداً ينتمون إلى دول كثيرة جداً

وكان الاتروسكانيون أول شعب لم يقاوم هانيبال أو يحفل به أو ينضم إليه . .

وأدرك هانيبال من فوره أنه لا يستطيع الثقة بهذا الشعب أو الاعتماد عليه، وأنه إذا أراد النجاح فإن عليه أن يضم إلى جانبه أكبر عدد مستطاع من حلفاء روما

وعندما مر هانيبال بجيشه على معسكر الأعداء فى التلال دفع بفرسانه عبر الوادى لينهبوه ويحرقوا القرى دون الاشتباك مع العدو فى أية معركة ، وبذلك أمكن الحصول على بعض المؤن .

كان من الواضح أن القرطاجنيين يتحركون نحو روما ، وأن هانيبال لا يريد إضاعة أية لحظة فى مناوشات لا طائل تحتها ، ومن ثم فحينما جاءه جواسيسه ليقولوا له إن القنصـــل الجديد جايوس فلامينيوس يحشد جيشاً كبيراً صاح فيهم : وماذا يهمنى من معرفة الأرقام؟ يكفيني أن أعلم ماذا يدور فى خلد فلامينيوس ،



كان جايوس فلامينيوس رجلا ممتازاً ، ولـكنه كان مكروهاً من رؤساء الأسر الرومانية الكبرى ، لأنه تبنى قانوناً للإصلاح الزراعى ضد رغبة مجلس الشيوخ ، وعندما أصبح قنصلا فى عام ٢٢٣ لم يكن له جيش يخوض به المعارك ، وفى عام ٢١٧ انتخبه الشعب ليحل محل سمبرونياس التعس ، وبذلك تولى قيادة جيش . وبادر بالذهاب شمالا ـ ضد إرادة مجلس الشيوخ ـ لينضم إلى قواد الميدان .

ورغم كراهية الأسر الرومانية الكبيرة له كان فلامينيوس رجلا قوى الإرادة ، كفئاً ، وكانت نقيصته الوحيدة أنه شديد المغالاة فى الثقة بنفسه . .

وقرر أن يتخلى عن إقليم بو فى الوقت الحاضر ، وانتظار

هانيبال على مشارف الأرض الرومانية ، ولكن مجلس الشيوخ رأى فى ذلك إذلالا لكرامة روما . ولما كان الرومان جيشان يزحفان نحو هانيبال ، فقد ذهب فلامينيوس إلى غرب جبال ابنين ، بينما انتظر سرفليوس بجيشه شرقاً عند ريمينى . وعندما اكتشف أن هانيبال مر بمعسكره فى الوادى لم يبادر فلامينيوس باللحاق به ، لأنه أيقن أن هناك خدعة وإنما بعث بنصيحة عاجلة إلى سرفليوس لينطلق غرباً بأقصى سرعة ، وعندما سمع أن سرفليوس فى طريقه نزل فلامينيوس بجيشه من فوق التلال ليقتفى أثر القرطاجنيين مستعيناً فى معرفة هـذا الطريق بالقرى التى أحرقها جيش هانيبال فى زحفه . .

وانطلق فلامينيوس بجيشه حتى بلغ كورتونا نحو بحيرة تراسيمينو ، وكان يعتقد أن هانيبال لن يلبث أن يعبر طريق فلامينيو الذى يسرع فيه سرفليوس فى مدى يومين أو ثلاثه أيام وبذلك يقع بين فكى الكماشة . ولذلك أسرع فلامينيوس فى زحفه

ولكن فلامينيوس لم يكن يدرى شيئاً عن أحابيل هانيبال ..

فقد استبق قوات المناوشة النوميدية فى مؤخرة الجيش

القرطاجنى بحيث تكاد داوريات الرومان المتقدمة أن تراها ، وكانت هذه القوات تعود إلى المعسكر ليلا للتعمية . .

وكان هانيبال يحرص على استكشاف المنطقة ودراستها بنفسه

وبعد أن حصل هانيبال على جميع المعلومات التى أرادها ترك شاطىء بحيرة تراسيمينو وعاد إلى المعسكر . وقبل أن ينتهى ليل يونيو القصير كان الجزء الأكبر من الجيش القرطاجنى قد بدأ زحفه وانثنى يساراً إلى التلال القائمة على جانب البحيرة واختفى فى ضباب الصباح المبكر

واستمرت فرقة من حملة الرماح الأفريقيين المكدودين تسير فى الطريق حول البحيرة حينما ظل النوميـــديون يتسكعون فى المؤخرة . وكان ذلك فى اليوم العشرين من شهر يونيو

* * *

فإذا كان صباح يوم ٢١ يونيو استأنف جيش فلامينوس ، وكان عدده ٤٠٫٠٠٠ مقاتل سيره من معسكرة عند طرف الوادى . وكان جيشاً حسن التنظيم والتسليح . وكالعادة سبقت الفرقة المتقدمة الجيش مقتفية أثر الفرسان القرطاجنيين على طريق البحيرة

وجاءت بقية الجيش خلف هذه الفرقة وعلى رأسها القنصل نفسه

وقال مساعد القنصل أن جيشهم لن يلبث أن يقابل جيش القنصل الثانى عند طريق فلامينيو بعد يوم ونصف على الأكثر..

استمر الظلام منتشراً بعد موعد شروق الشمس بساعة ، وخيم ضباب كثيف على البحيرة فراح الطابور يتحسس طريقه فى الظلام ، وحدث بعض الهرج عندما اندفع جناحا الفرسان فى أثر المشاة بسبب ضيق الطريق ، ولكن المشاة ظلوا محتفظين بتماسكهم ونظامهم ، ومع أن الضباب بدأ ينقشع إلا أنه كان لايزال يحجب الجانب الأيمن من البحيرة عن الأنظار

وانبعث زئير مخيف لم يستطع الجيش الرومانى أن يتبين مصدره ، إلا أن جنوده المحنكين أدركوا أن هجوماً شن عليهم وإن لم يستطيعوا تمييز المهاجمين نظراً لكثافة الضباب

وبدأت القذائف تتوالى كالسيل على جنود الجيش الرومانى ، وأخذ هؤلاء يتساقطون كأوراق الخريف وهم يئنون ويتأوهون ويصرخون ويولولون

واندفع الفرسان بين صفوف المشاة ، ونظراً لضيق الطريق ساد الهرج والمرج ، وبعد لحظات استطاع جنود الجيش الرومانى أن يميزوا أشباحاً تنقض عليهم من فوق التلال وتعمل فيهم قتلا

وفتكا حتى خيل إليهم أن الأرض زلزلت زلزالها . .

وهكذا أفسد هذا الهجوم الصادق المفاجىء نظام الجيش الرومانى وأعجزه عن القتال

وراح هانيبال يلقى بفرقه الواحدة تلو الأخرى فى هذا الهجوم المفاجىء بعد أن احتفظ بها مختبئة فوق التلال طوال الشطر الأخير من الليل . .

وأطبق الفرسان القرطاجنيون على مؤخرة طوابير الرومان ، وهكذا انحصر هـــذا الجيش فيما يشبه القوس ، فالبحيرة أمامه والعدو على جوانبه وفى مؤخرته . فساد الفزع بين جنود روما وإن حرصوا على التمسك بنظامهم ، واضطر كثيرون منهم فى النهاية إلى إلقاء أنفسهم فى البحيرة ، ولكن القرطاجنيين خاضوا الماء بجيادهم وأجهزوا عليهم .

وانتهت معركة بحيرة تراسيميو فى الساعة العاشرة صباحاً . ولم يفلت من هذه المجزرة الهائلة غير مرتزقة الرومان التى كانت قد سبقت الجيش لاستكشاف الطريق

وهكذا قضى على هذا الجيش قضاءاً مبرماً .

## هانيبال يستدبر شرقاً :

حاولت الفرقة الرومانية التى أفلتت من الموت أن تهرب ، ولكن الفرسان القرطاجنيين استطاعوا اللحاق بها ومحاصرتها . وهنا حدث شيء غير متوقع فقد استسلمت الفرقة كلها بلا قتال ، وهكذا أخذ القرطاجنيون ٦٠٠٠ جندى رومانى أسرى بلاقتال..

والواقع أن معركة تراسيمينو لم يسبق لها مثيل فى تاريخ إيطاليا . فقـــد أسر القرطاجنيون ١٥٠٠٠ من جنود الجيش الرومانى ، وأبادوا الباقين على بكرة أبيهم ، بينما لم تزد خسائر القرطاجنيين على ٢٥٠٠ جندى بين قتيل وجريح

ولم يعثر هانيبال على فلامينيوس حياً أو ميتاً ، وإن كان الانسو بريون ادعوا أنهم قتلوه

وجريا على سياسته التقليدية أطلق هانيبال سراح الأسرى غير الرومانيين بعدأن أحسن معاملتهم بينما سام الرومان خسف العذاب ثم باعهم رقيقاً للتجار اليونانيين .

وقبل أن يستأنف الجيش القرطاجنى زحفه ، عقد مؤتمرا

لقواد جيشه ، واستقر رأى الأغلبية على ضرورة منح الجيش قسطاً من الراحة فى مكان آخر .

ورؤى أن يمضى الجيش شرقاً نحو بروجيا ، بيد أنه ما كاد الجيش القرطاجنيين يشرع فى السير . ويصل الى طريق فلامنيو حتى التقى بأربعة الاف فارس رومانى كاوا فى طليعة جيش القنصل الثانى سرفيليوس قادمين من ريمين . وقد بهت الرومان . للمفاجأة وبالاخص حينما أحاط القرطاجنيون بهم واستطاعوا أن يأسروا ألفين منهم أحياء .

وفى نفس اليوم تجمهرت جموع كبيرة حول مجلس الشيوخ الرومانى بعد أن سرت شائعات عن الكارثة التى حلت بالجيش .

وأخيراً خرج إليهم بومبونوس ماثو . وأعلن التصريح الخطير التالى : .

ـ لقد حلت بنا كارثة مروعة فى معركة رهيبة قتل فيهما أحد القنصلين . .

## انتخاب ديكتاتور :

قال بابليوس فيما بعد : « إن الرومان لا يكونون مصدر خطر سواء كأفراد أو كشعب إلا حينما يتهددهم خطر داهم » .

وقد صدق بابليوس فيما قال : فقد كانت هزيمة بحيرة تراسيمينو نذيراً لشعب روما بالخطر الإفريقي الذى أصبح يقرع أبوابهم ويهددهم بالفناء . ولكن الرومان لم يفقدوا رباطة جأشهم وأعتبروا موقعة البحيرة « يوما آخر أسود » من أيام الهزيمة ؛ وعندما جاءت الانباء بعد المعركة تفيد بأن فرسان سرفيليوس قد أبيدوا إزداد التوتر فى روما ، وخرجت النساء إلى الشوارع تنوح وتبكى ، وإزدادت الشائعات أنتشاراً وكانت أهمها شائعة تقول بأن مدينة روما ستخلى من سكانها بمجرد أقتراب القرطاجنيين منها .

وللمرة الأولى أتفقت كلمة المجالس الشعبية مع مجلس الشيوخ فقد شعر الجميع بأن القنصلين اساءا التصرف ، وإن هانيبال رجل خطير لا يمكن أن يقف فى وجهه غير ديكتاتور يتولى الدفاع عن المدينة بشرط أن ينتخبه الشعب ويمنحه جميع السلطات .

وأخيراً أستقر الرأى على تعيين عميد أسرة فابيان فابيوس فريكوزاس الذى سبق إن حذر مجلس الشيوخ من هانيبال ، ديكتاتوراً مطلقاً .

وكان فريوكوزاس كهل يجنح إلى الصمت ، وقد اكتسب شهرة « المعوق » بين الجميع ، فضلا عن الصبر وقوة احتمال المكاره

وعلى أثر تعيين فريوكوزاس ، حثه مجلس الشيوخ على تدعيم اسوار المدينة والدفاع عن كباريها ، ولكن فابيوس الكهل لم يفعل ذلك ؛ وإنما طالب الشعب ببذل جهد مضاعف ، وأعلن التعبئة العامة ، وفرض ضرائب جديدة لمواجهة نفقات الحرب . كما طالب حلفاء روما بتقديم مزيد من الرجال . . وعندما سافر إلى الشمال للحاق بفلول جيش سرفيليوس ، أمر بأحراق جميع المحاصيل وقتل الماشية فى جميع القرى الواقعة على طريق زحف القرطاجنيين حتى يحرمهم منها .

وسرعان ما سمع الديكتاتور الرومانى أنباء غريبة ، فقد قيل له أن جيش قرطاجنة يعيث فى الأرض فساداً ويتركها خرابا أينما ذهب ؛ وأنه يأسر كثيرين من سكان المدن ممن يخشى سطوتهم ويبيد الشبان ممن هم فى سن الخدمة العسكرية ( والواقع أن هانيبال لجأ إلى هذه السياسة الارهابية لأول مرة لاثارة فزع هذه المنطقة المتاخمة لروما ) .

وسرت فى روما موجة جديدة من الكراهية نحو هانيبال . . واراد فابيوس أن يزيد من حدة هذه الكراهية فقال للزعماء : « لماذا

تنطقون باسم هانيبال وأنتم خائفون ؟ إنه رجل واحد فقط ، بعيد جداً عن قرطاجنـــة .. لقد فقد ثلثي جيشه منذ أن عبر جبال الألب ولا مفر له من الحصول على طعام جيشه يوما بيوم ، وكلما مر يوم إزداد جيشه ضعفا بينما نزداد نحن قوة » .

ومع أن الحقائق التى ذكرها فابيوس لم تكن دقيقة . . ولعله كان يعرف ذلك . . إلا أن منطقه كان صحيحاً ، لأن الوقت كان فى جانب الرومان ، وقد صمم فابيوس على كسب الوقت بأى ثمن .

لقد حيرت أعمال هانيبال زعماء مجلس الشيوخ روما . فراحوا يتساءلون عما يدفع هذا القائد القرطاجنى الظافر إلى الابتعاد عن روما نحو الشاطئ الشرقى حيث الأرض أكثر جدباً مجردة من الموانىء ، وحيث المدن قليلة ، والشعوب تكاد تكون خارجة عن نطاق سلطة روما .

ولم يحاول فابيوس الاجابة على اسئلة أعضاء مجلس الشيوخ . وبعد أن ترك معظم ضباطه المحنكين على نهر التيبر لتدريب جيش جرار جـــديد ، قاد جيشه شرقاً لاعتراض طريق هانيبال ومراقبة تحركاته .

## فابيوس يتحرك ضد هانيبال :

استرد القرطاجنيون الاراضى المرتفعة على البحر الادرياتيكى فى ذلك الصيف ؛ وكان أهلها البيزنطيون أبعد الناس إدراكا عما كان يحدث غربا ، ولهذا استسلموا لمصير لم يكن فى استطاعتهم أن يدفعوه أو يتجنبوه . . ولما كان القرطاجنيون قد قطعوا أكثر من ١٨٠٠ ميل فى الخمسة عشر شهراً الأخيرة فقد سرهم أن يضربوا معسكراتهم ليستريحوا ويضمدوا جراح المصابين منهم ، ويعيدوا تنظيم صفوفهم . .

وبدأ هانيبال يعيد تنظيم جيشه ، فمنح رجاله ثيابا رومانية جديدة بدلا من الثياب القديمه التى بليت ، أما الأسلحة التى استولى عليها من الرومان فقد باعها للتجار اليونانيين ، ووهب الدروع للغال الذين كانوا يجيدون استخدام الأسلحة الرومانية .

وحينما انتهى هانيبال من تزويد جنوده بالأسلحة ، شرع فى تدريبهم على التكتيكات الجديدة بعد أن اقتبس كثيرا من تكتيك الرومان ، ولهذا لم يعد يكثر من الاعتماد على نصيحة ضباطه المخضرمين. فشكل فرسانه فى وحدات يتراوح عدد كل وحدة منها

بين ٥٠٠ و ١٥٠ فارس مزودين بأسلحة ثقيلة . أما النوميديون فقد وضعهم تحت قيادة ماهربال، وبذلك انتزعه من قيادة الفرقه الأفريقية الهامة .

وقبل أن ينتهى هانيبال من تدريب جيشه ، زحف جنوبا على طول الساحل فى مراحل سهلة . وبدا جيش فابيوس على خط الأفق ، وكان يراقب القرطاجنيين عن كثب، ويربض فوق حوافى مرتفعة . وبرغم حدوث مناوشات بسيطه بين الرومان والقرطاجنيين ، إلا أن الأوائل حرصوا على ألا ينزلوا إلى الوادى المكشوف ، ولم يبدوا أية رغبة فى الاشتباك مع العدو فى قتال واسع النطاق .

وبعد انقضاء عدة أيام فى المراقبة ، قال هانيبال لجأة : لقد كسبنا الحرب لأن روح الرومان الحربية منهارة .

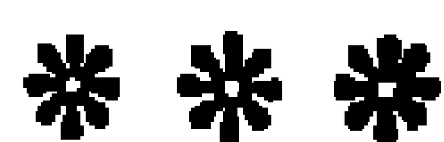
ولعله قصد بذلك رفع روح ضباطه المعنوية ، ولو أنه من المحقق أن هانيبال أحس فعلا بانهيار روح الرومان العسكرية ، ووجود تغيير فى روح القيادة التى تواجهه . .

وزحف هانيبال جنوباً إلى السهل المرتفع حول تقاطع الطرق عند لوسيرا ، وترك جياده ترعى فى الحقول المسطحة غير عابىء

بالعدو . وراح فابيوس يراقب القرطاجنيين من فوق مرتفع بعيد ، وإذ لاحظ هانيبال أن غريمه لا يحرك ساكنا ، سمح لجنوده بأن ينهبوا ضياع نبلاء الرومان بغير أن يمسوا القرويين بأذى وقد أدى هذا التسامح إلى انضمام عدد كبير من الصيادين والرعاة الذين يتضورون جوعاً فى هذه المنطقة إلى جيش هانيبال .

ونصب القرطاجنيون فخاخاً كثيرة لفابيوس ، ولكن هذا حرص على التزام الجمود والمضى فى المراقبة . إذ كان يعلم أن كل أسبوع ينقضى يزيد من قوة تدريب الجنود الذين كانوا يعبأون فى روما .

أما هانيبال فعبر نهراً صغيراً هو نهر أوفيداس بالقرب من قرية مشيدة بالحجر إسمها كاناى . وكان هانيبال يرمى إلى التعرف على معالم المنطقة ، وفى الوقت ذاته كان يفعل شيئاً لم يفطن الرومان إليه .



ليس من السهل معرفة سر الخطة التى رسمها القرطاجنيون لأن هانيبال لم يسجل شيئا عنها ، ومن ثم فإن كل ما يمكن معرفته عنها لايمكن أن يجىء إلا عن طريق التكهن . .

فقد طرأ تغيير كبير على موقف القرطاجنيين ، إذ ما كاد الصيف ينتصف حتى استطاع هانيبال أن يصل إلى سواحل البحر الادرياتيكى ويعيد إتصاله بالبحر وبقرطاجنة . وكانت سفن صغيرة تتسلل من أفريقيا وتروغ من الأساطيل الرومانية إلى شاطىء بيزنطة عديم الموانىء ، ويبدو أن هانيبال باع أسرى تراسيمينو لتجار الرقيق القادمين من الشرق فى تلك الأثناء .. وبعث هانيبال أيضاً بمندوبين عنه إلى فيليب ملك مقدونيا عن طريق ساحل دلماسيا يدعوه للتحالف مع قرطاجنة ضد روما .

ويبدو أن ماجو ، شقيق هانيبال الصغير ، انضم فى تلك الأثناء إلى أخيه هانيبال حينما كان جيش قرطاجنة معسكراً على الأدرياتيكى ، وقد أحضر ماجو معه أنباء من أسبانيا كان هانيبال ينتظرها على أحر من الجمر .. وتلك أن الأخوين بابليوس وسنيو الأصلع أنزلا جنودهما هناك فى شمـــال أبرو حيث قامت القبائل الأسبانية الشمالية بمقاومتهم بقوة السلاح . وراح هاسدروبال يراقب المتقاتلين وهو فى قرطاجنة الجديدة ، بينما كانت الأساطيل المعادية تكتسح الشاطىء الأسبانى ..

وأهم نبأ أحضره ماجو أن أسطولا حربياً خرج من قرطاجنة

يتألف من ٧٠ سفينة حربية وأنه اشتبك مع القوافل الرومانية المرسلة إلى أسبانيا ، وغزا ساحل إيطاليا الغربى ؛ فأرسل الرومان أسطولا مؤلفاً من ١٢٠ قطعة حربية من قاعدتهم بصقلية ـ تحت قيادة سرفيليوس المشهور ـ لمحاصرة سردينيا وكورسيكا والبحث عن الغزاة القرطاجنيين عند سواحل أفريقيا . .

وهكذا كانت الصورة التفصيلية غير مشجعة لهانيبال ، لأن وجود الاخوين سبيو عند نهر أبرو قطع طريق المواصلات الذى كان يأمل أن يظل مفتوحاً مع أسبانيا ومع أن جيشه أى جيش هانيبال ، لم يكن يبعد فى ذلك الحين أكثر من ٤٠٠ ميل عن قرطاجنة ، إلا أن الأساطيل الرومانية كانت تغلق هذا الطريق فى وجهه . .

وظلت هذه الصورة الكبيرة ماثلة فى ذهن هانيبال وكانت مصدراً لأمله وقلقه معاً . أنه لم يجر وراء الأوهام بالنسبة لقرطاجنة ؛ ولكنه كان يعتقد أنه وإن كان تعدادها لا يزيد على عشر الرومان ، إلا أن مواردها تضارع موارد روما حينما تعبأ هذه الموارد تعبئة كاملة . فاذا استطاعت قرطاجنة أن تحتفظ بمناجم أسبانيا ، وأضافت إليها غابات كورسيكا وجنوب سردينيا

وثراء صقلية فمن المحقق أن الميزان يميل فى مصلحتها تماماً ..

وفى تلك الاثنـــاء كان الجواسيس يروحون ويجيئون من قرطاجنة إلى سيراكيوز ، قلعة صقلية ، وإذ كان هوكارثالو رئيس الجواسيس قد انضم إلى هانيبال فقد وسع شبكة جواسيسه إلى روما ذاتها .

وقاد هانيبال جيشه غرباً نحو الحقول الخصيبة ومدن كمبانيا ذات الاسوار . ولكنه ـ حينما فعل ذلك ـ لم يستدرج فابيوس إلى النزول إليه والاشتباك معه فى القتال ، وإنما سقط فى الفخ الذى نصبه فابيوس له .

جيش الثيران :

يكاد جنوب ايطاليا يشبه وادى التيه إذ أنه يتألف من وديان ضيقة وأخاديد خداعة تتخللها مرتفعات جبلية وندر أن توجد بها سهول تذكر ، ولهذا لاقت جيوش الحلفاء متاعباً كثيرة عند بداية نزولها فى جنوب إيطاليا خلال الحرب العالمية الأخيرة .

إلا أن الجيش الرومانى القديم وجد طريقه سهلا نسبياً على طول الأرض المرتفعة ، على حين كان من العسير على القرطاجنيين

أن يصلوا إلى أى مكان على طول الوديان المنخفضة .

وراحت دوريات الاستكشاف القرطاجنية ترتاد الوادى الضيق ، وتستكشف الطريق ، بينما التزم الرومان جانب الجمود وظلوا يراقبونهم عن كثب من مواقعهم المرتفعة دون أن يبدو منهم مايدل على أية رغبة فى الاشتباك فى القتال برغم الخراب والتدمير الذى كان القرطاجنيون يحدثونه فى المدن والقرى التى مروا بها .

وبعد ظهر أحد الأيام لاحت لفابيوس فرصة نصب فخ للقرطاجنيين ، فأوفد بعض ضباطه للعمل بعد أن أصدر اليهم التعليمات اللازمة لالتزام جانب الحذر ، وأرسل أجزاء من فرقتين قوامها حوالى ٤٠٠٠ رجل إلى مخرج الاخدود البعيد لاغلاقه . بينما هبطت القوة الرئيسية إلى مرتفع مريح من الأرض المشرفة على مدخل الأخدود ، وعسكرت هناك ، فإذا ماغربت الشمس كان القرطاجنيون قد حصروا فى معبر الوادى .

عرف هانيبال هذا كله من داوريات الاستكشاف . ، فقرر القيام بحركة لاتخطر على بال أعدائه كان قد رآها فى جبال أسبانيا

فأمر رعاة قطعان حيواناته بأخذ حوالى ألف ثور إلى رأس الوادى، وأن يثبتوا فوق قرونها مشاعل مطفأة وينتظروا هناك .

ثم أمر هانيبال باطعام الجيش ، والنوم .

وحوال منتصف الليل انضم هانيبال إلى رعاة الماشية ومعه قوة صغيرة من الكات المدربين على القتال فى السهول. واقتيدت الثيران الى الجانب شديد الانحدار من السهل وشرع الاسبانيون الموجودون مع هانيبال فى إشعال الشعلات المثبتة على قرون الثيران ثم دفعوها فى اتجاه العدو وهم يطلقون صرخات مرعبة .

وما كادت النيران تتأجج حتى اندفعت الثيران كالمجنونة، ورأت نقط المراقبة الرومانية الموجودة فوق القمة العاليه منظراً عجيباً . . مئات المشاعل تتحرك فى كل مكان مختلفة بزئير وصيحات تصم الآذان . .

وعندما تحرك الجيش الرومانى من مكانه ليستطلع جلية الأمر لم يجد الجيش قرطاجنة أثراً .

كان جيش هانيبال قد تسلل من ممر سفلى إلى الامان .

وعندما أشرقت الشمس كانت مؤخرة الطابور القرطاجنى

تعبر القمة التي هجرها الرومان وأرسل هانيبال فصائل قوية لإحضار الجنود الذين دبروا خدعة الثيران وغرروا بالرومان .

ومن المدخل الأسفل، كانت القوات الرومانية الأساسية تراقب منظر المشاعل بين التلال بغير أن تجرؤ على اتخاذ أى إجراء ، فقد رفض فابيوس أن يأمر جيشه بالعمل فى ظلام الليل البهيم ، وعندما انكشفت الحيلة راح ضباطه يلومونه على جموده .

وأثارت القصة استياء شديداً ضد فابيوس فى روما . وعندما أوشك العام على الانتهاء استدعى فابيوس إلى روما لاستجوابه ، ولكنه أصدر أمره إلى نائبه بألا يشتبك مطلقاً فى قتال مع هانيبال .

لاسلام له فى ايطاليا :

لم تبدأ معركه كاناى الكبرى فى ذلك الفجر المشئوم يوم ٣ أغسطس سنة ٢١٦ ذلك لأن هذه المعركة بدأت منذ شهور فى عقل هانيبال وفى الأحداث التى جرت فى روما ودفعت بقوات لاتقاوم إلى كاناى .

كان مينوسيوس روفاس نائب القنصل فابيوس شاباً مندفعاً ينتمى إلى الفريق الذى يعارض فابيوس . وقد شاركه ضباط الجيش

النفور من السياسة التى يتبعها الديكتاتور الكهل ، ولهذا فليس هناك ما يستحق العجب إذا كان مينوسيوس قد قبل الفرصة التى عرضها هانيبال للاشتراك فى القتال .

فقد اتفق ان كان أحد جناحى الرومان من الفرسان يطارد الماشية القرطاجنية التى كانت ترعى فى الحقول ، وما لبث هذا الجناح أن اصطدم بخط نقط القرطاجنيين فوق مرتفع من الارض . . واشتبك الرومان فى معركة حامية مع القرطاجنيين، وعندما خف مينوسيوس لتأييد فرسانه ومعه قوات جديدة . كاد القرطاجنيون يتراجعون عن خطهم . وفى اليوم التالى تبين للرومان أن القرطاجنيين هجروا التل ، فقد تقهقر هانيبال كعادته .

وليس من شك فى أن مينوسيوس بالغ فى وصف ما حدث فأثار ذلك فرحا عظيما فى شوارع روما التى لم تشهد حتى ذلك الحين سوى مناظر النواح والحزن . واستنتج الشعب أن فابيوس هو سبب النكبة كلها بما عهدعنه من بطء واضاعة للفرص .

واستدعى مينوسيوس إلى روما لأخذ رأيه ، وهناك رؤى تكريمه ، فعين ديكتاتوراً ثانياً . وهى حالة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ . ولم يعترض فابيوس على ذلك كعادته وكل ما فعله هو أن

سأل شريكه إن كان يريد مشاركته فى قيادة الجيش الرومانى أو يريد الاستئثار بقيادة نصفه ، فاختار مينوسيوس العرض الثانى . وعندما عاد الديكتاتوران إلى الميدان ، تتبعت قواتهما جيش هانيبال إلى ركن من ساميتوم حيث قام مينوسيوس بالهجوم من جديد ، وكاد القرطاجنيون أن يفتكوا بفرقه لولا أن بادر فابيوس بانقاذها .

ومرة أخرى انسحب هانيبال .. وانتظر .

وعاد الديكتاتوران من جديد إلى معسكريهما فوق التل ..

ومر الوقت سريعاً ، وحان وقت انتخاب قنصلين جديدين ..

أما تصرفات هانيبال فى تلك الفترة ، فكانت أشبه بالألغاز والأحاجى .. فبينما كان فابيوس يصرح فى روما بأنه لا سلام لهانيبال فى ايطاليا ، كان هانيبال يدعم جيشه بمجندين جدد من القطاعات التى تكره روما ، فاستطاع أن يرفع عدد رجال جيشه من ٣٥٫٠٠٠ إلى ٤٠٫٠٠٠ جندى . على حين راح الرومان يبعثون مزيداً من الجنود .

ومهما يكن من أمر ما كان هانيبال يعتزمه ، فإنه حرص على

المحافظة على تماسك جيشه وعدم المغامرة به فى معركة فاصلة . .

وفى تلك الأثناء لمع نجم خطيب رومانى اسمه ترنيتوس فارو ، وقد استطاع هذا الرجل أن يحظى باهتمام الجماهير حينما صرح بأن القادة من أسرة فابيان يتعمدون اطالة الحرب واستنزاف موارد البلاد من الرجال والمال . وقد أدى ذلك إلى انتخاب فارو لمنصب القنصل الشعبي .

وتأخر انتخاب قنصل النبلاء لانشقاق أعضاء مجلس الشيوخ على بعضهم . ومما زاد موقف فابيوس سوءاً أن الأنباء وردت بأن هانيبال ينهب جميع المحاصيل الموجودة فى منطقة القتال ، ولكنه ترك جزءاً تملكه أسرة فابيان بغير أن يمسه .

وانجلت معركة انتخاب قنصل النبلاء عن اختيار اميليوس بولاس قنصلا وكان كهلا ذا ماض لامع .

وكان بولاس واحداً من المبعوثين الخمسة الذين أوفدوا إلى قرطاجنة لإعلان مجلسها بأن روما ستعلن الحرب عليها . ولهذا كان من الملائم أن يعهد إليه بإنهاء هذه الحرب . وهناك قصة تقول بأن فابيوس حذر اميليوس بقوله : « سوف تجد أن فارو عدو أخطر من هانيبال » .

والواقع أن روحاً شبيهه بالروح الصليبية اكتسحت روما في صيف عام ٢١٦ ، فقد استقال أكثر من مائة عضو من مجلس الشيوخ وانضموا إلى الجيش . بينما تطوع الآلاف من الطبقات الدنيا طمعاً في نهب معسكر القرطاجنيين الغني .

وهكذا بلغ عدد جنود الجيش الروماني حوالي ٨٥٠٠٠ جندي كان أكثر من نصفهم مجندين جدد . .

وأخيراً قرر مستشارو مجلس الشيوخ ضرورة الالتجاء إلى خطة الهجوم بعد أن اطمأنوا إلى عاو تدريب الجنود وقوة تماسكهم ، وكانوا يقولون أنه وإن كان الهجوم سيسفر عن خسائر فادحة في الأرواح إلا أن هانيبال لن يستطيع احتمال خسـائر كبيرة في جيشه .

وعهد إلى مينوسيوس بالقيادة العليا . .

وفي الوقت ذاته انضم بابليوس كورنيليوس سبيو الذي ساعد أباه الجريح في تربيا إلى الجيش ليثأر لأبيه من هانيبال . .

ووقع حادث تافه أدى إلى إشعال نار القتال . .

حدث أن استولى هانيبال على مخزن حبوب آخر في قرية

كاناى نصف المهدمة بعيداً عن ساحل البحر الأدرياتيكى . فأثار ذلك حماس الجماهير وطالبته بوضع حد لهانيبال وجيشه .

وأصدر مجلس الشيوخ أمره لجميع القوات بالزحف والاتحاد ضد هانيبال .

وكانت التقارير الأولى تحمل بشائر طيبة ، فقد اكتسحت القوات الجديده معسكر إحدى نقط القرطاجنيين واستولت على كميات كبيرة من الأدوات الفضية والجواهر ملقاة فى خيام مهجورة . .

وكانت نيران الطهى لاتزال مشتعلة . . فاندفعت القوات الرومانية لمطاردة القرطاجنيين مخالفة بذلك تعليمات ضباطها . .

واتحد الجيشان الرومانيان بقيادة القنصلين الجديدين . واندفعا لمطاردة هانيبال وجيشه وتبين لهما أن هانيبال ترك معسكره عند قدومهما وتقهقر عبر نهر أوفيدس ..

وهناك ، فى وادى كاناى المكشوف ظهرت بوادر معركة كبيرة على الأفق .

وكان ذلك فى اليوم الثالث من أغسطس . .

## المرتفعات غير المنظورة :

وقف هانيبال بجواده فوق ربوة فى التل الجاف ، وراح يتأمل الوادى الفسيح أمامه ، بينما أخذت الريح الساخنة تلفح وجهه . .

ولم يكن هذا الوادى يبعد عن بحر الادرياتيك بأكثر من ثلاثة أميال ، وكانت الفرق الرومانية تتحرك فى صف طويل فتفصله عن البحر ، ولاحظ هانيبال أن المشاه يسيرون فى نظام بديع ، وأن الفرسان يسيرون فى أثرهم وهم مسلحون بالدروع طبقاً لنظام تشكيل الجيش الرومانى . .

وبعد أن لمعت فى الأفق أشعة الصباح الاولى، بعث هانيبال بفرسانه الاشداء بقيادة هانو بن بوميلكار فى اتجاه مدينة كاناى وظل القائد القرطاجنى يتبع فرسانه النظر إلى أن بلغوا منحدر كاناى .

وبدأ هانيبال يصدر أوامر سريعة إلى مختلف الفرق ، فاندفع الرسل يحملون هذه الاوامر إلى قواد الفرق . . .

وبقى الجيش القرطاجنى فى الانتظار بصبر ، بينما كانت جماهير الجنود الرومانيين تزحف نحوه . .

وفجأة، ارتفع زئير الرومان ايذانا ببدء الهجوم ، وكان القرطاجنيون فى انتظارهم صامتين . وخيل فى بادىء الامر أن كتلة المهاجمين الرومانيين سوف تقتحم صفوف القرطاجنيين .

وأصدر هانيبال أمراً . وفى التو ألقى خدمه ناراً مشتعلة فى الاعشاب الجافة ، فارتفع دخان كثيف حملته الريح إلى بعد ميلين فرآه هانو الذى كان يترقب هذه الاشارة . .

كان القرطاجنيون يمتازون عن الرومان بأن قوادهم عرفوا ميدان الحرب منذ بدأ النزاع بين القرطاجنيين والرومان ، على حين أن قواد الرومان كانوا غرباء عن بعضهم . . فقد تولى اميليوس المحنك قيادة جناح الفرسان الايمن . وتولى القنصل السابق سرفيليوس قيادة قلب المشاة وتولى فارو ، وهو أقل القواد دربة قيادة جناح الفرسان الايسر وهو أضعف جزء فى الجيش وهكذا لم يكن هناك قائد عام يتولى زمام الجيش كله وقت المعركة . .

واندفع الخط الرومانى القوى صوب الخط القرطاجنى لأنه لم يكن يعرف تكتيكا غير ذلك . . كان فى استطاعة هذا الطابور أن يضرب بعنف ولكنه كان عاجزاً عن المناورة .

ولم ينتظر القرطاجنيون أطول من ذلك ، فقد إعاد هانيبال تشكيل جيشه فى وحدات جديدة ، وجعل قلب الجيش أضعف نقطة فيه ، ولكنه أحاطه بمربعات قوية سلح رجالها تسليحاً قوياً. وكان كل مربع منها يحتل مرتفع بسيط فى الوادى . وبذلك ظلت بمنأى عن المعركة عند بدايتها .

وعندما استهلت المعركة اضطر الغال والأسبانيون الذى كانوا يشكلون قلب الجيش القرطاجنى إلى التراجع أمام هجمات قلب الجيش الرومانى العنيفة . وعند تراجع قلب الجيش القرطاجنى أخذ يتسلق مرتفعاً من الأرض وبذلك أمكنه أن يشكل مع الجناحين مايشبه القوس .

وألقى قلب الجيش الرومانى نفسه يندفع بداخل القوس ، وبعد ساعة كان الجيش الرومانى كله تقريباً بداخل هذا القوس . وبعد ساعة أخرى ، أصبح الرومان جميعاً بداخل القوس .

وفجأة أطبق جناحا الجيش القرطاجنى رويدا رويدا على الجيش الرومانى بغير أن يفطن إليهما أحد ..

ذلك أنه ما كاد هانو يبصر الدخان الذى سبقت الإشارة إليه حتى اندفع بفرسانه نحو فرسان الجيش الرومانى الموجودين فى

المؤخرة لحصرهم بينه وبين البحر .. وانقض رجاله بوحشية على الرومان، فسقط اميليوس على أثر اصابته بحجر ، ولم يعش طويلا بعد ذلك . .

واكتسح أعصار هانو ورجاله فرسان الرومان ، واضطرهم إلى التقهقر نحو ركن بين النهر والبحر . وهناك تفرق ماتبقى من فرسان اميليوس وهاموا على وجوههم .

وهكذا نفذ هانو أول الأوامر التى صدرت إليه . وبعد أن جمع شمل فرسانه من جديد،مضى لتنفيذ الأمر الثانى . وكان أمراً غريباً إذ كان عليه أن يحيط بالجناح الرومانى الثانى خلف المشاه .

وعلى هذا الجناح كان النوميديون يشتبكون مع العدو فى مناوشات غريبةعلى مألوف عادتهم . كانوا يهاجمون،ثم يتراجعون وتظاهر كثيرون من جنود هانيبال بالتسليم ، ولكنهم ماكادوا يندمجون فى صفوف فارو الرومانى حتى أخرجوا أسلحة كانوا يخبئونها وشنوا هجوما عنيفاً فى قلب الفرق الرومانية .

وفجـــأة انقض ماجو بفرسانه على فرسان فارو من الخلف . وليس من شك فى أن المفاجأة شلت حركة الرومان وبالأخص حينما ألفوا أنفسهم محاصرين بالنوميديين من الامام

والفرسان من الخلف . وحاول فرسان الرومان التخلص من الفخ بالوصول إلى الأرض المكشوفة ، فاضطرب نظامهم وفقد فارو كل سيطرة عليهم .

فإذا كان الظهر لم يبق فارس رومانى واحد بين حافة كاناى وجيش ها ينبال . . أما فرق المشاة الرومانية فراحت تقاتل فى وحشية وجنون وقد أصبحت كتلة بشرية كثيفة .

وللمرة الثالثة عاد فرسان قرطاجنة إلى المعركة بعد أن قضوا تماماً على فرسان الرومان . وأقبل هؤلاء الفرسان كالأعصار واندفعوا إلى قلب الفرق الرومانية . وسرعان ما أطبق الفخ على الرومان ، ولم يعد أمامهم مهرباً .

وراح الرومانيون يقاتلون بشجاعة ولكن بلا أمل ، فإذا كان المساء كان معظمهم قد أبيد فوق السهل الذى بدأوا منه القتال .. وحاول ألفان منهم أن يلوذوا بخرائب كاناى فحاصرهم فرسان ماهربال واضطروهم إلى تسليم أسلحتهم .

وعندما آذنت الشمس على المغيب ، راح هانيبال يتجول بجواده فى الوادى بعد أن تحقق النصر الكامل لجيشه .

وأمر هانيبال بنقل جرحى جيشه إلى خيام الأطباء . وحينما علم أن احد القناصل الرومان قد قتل أمر بالبحث عن جثته والاحتفال بدفنها بما يليق بمركزه من احترام .

وفى تلك الليلة احتفل جيش قرطاجنة بذلك النصر احتفالا كبيراً فشرب الجنود وأكلوا حتى أصيبوا بالتخمة . .

وقال ماهربال أثناء الوليمة : إن فى استطاعتك أن تقيم مثل هذه الوليمة فى قلب روما قبل انقضاء خمسة أيام ياهانيبال . . إن فرسانى سيذهبون إليها قبلك وسوف يعلم الرومان إنك جئت قبل أن يعلموا بأنك قادم » .

فتأمله هانيبال ملياً وقال : من السهل أن تقول ذلك ، ولكن احتلال روما يستلزم وقتاً طويلا

فصاح ماهربال غاضباً : لقد منحتك الآلهة كثيراً من المواهب ولكنها لم تمنحك كل المواهب ياهانيبال . . فأنت تعرف كيف تنتزع النصر ولكنك تجهل كيف تستغل هذا النصر !

ولم يجب هانيبال على ذلك . .

## غداة كاناى :

وهكذا سحق جيش قرطاجنة الجيش الرومانى الجرار بأعظم خدعة حربية عرفها التاريخ ..

ولعل لهفة القواد الرومان على تنفيذ أوامر مجلس الشيوخ بسحق هانيبال وجيشه ، واندفاعهم بتهور إلى الاشتباك فى القتال كانا من أهم العوامل التى أدت إلى الحاق هذه الهزيمة الماحقة بالجيش الرومانى ..

فقد أبيد ٥٠,٠٠٠ جندى رومانى أو أكثر فى معركة كاناى وبلغ عدد الأسرى ٣٠٠٠ من المشاة و١٥٠٠ من الفرسان . وقتل ٢٩ شيخا من شيوخ القبائل و٨٠ عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ .

وقد كشف صباح اليوم التالى عن فداحة الكارثة التى حلت بالرومان ، إذ كانت أرض المعركة مغطاة بالالاف والآلاف من جثث الجنود الرومان . ومن حين لآخر كانت إحدى هذه الجثث تتحرك والدماء تنزف منها .

أما خسائر القرطاجنيين فبلغت ٥٧١٠ جنديا بين قتيل وجريح .



وما كادت أنباء الفاجعة تصل إلى روما فى شكل شائعات أول الأمر ، ثم فى شكل حقائق بعد ذلك حتى ساد المدينة الهرج والمرج ، وبدأت جموع النساء والأطفال والكهول تتجمع عند بوابات المدينة والمعابد فى انتظار الأنباء الرسمية .

ونظرا لأن عدد الموظفين الرسميين الذين ظلوا فى المدينة كان قليلا ، لأن معظمهم انضم إلى الجيش المقاتل ، فقد بادر الديكتاتور السابق بتولى السلطة . وعين اثنين من البريتور لمساعدته فى تصريف شئون المدينة . ثم بادر فاوفد رسلا إلى الجنوب والشرق بحثا عن ضباط الجيش ومعرفة حقيقة الشائعات التى وصلت إلى المدينة .

وعاد الرسل الاول بأنباء لا تكاد تصدق . قالوا إنهم لم يعثروا على أى معسكر رومانى ، ولم يجدوا قيادة رومانية ، ولا جيشاً رومانيا . .

وبرغم هذه الأنباء الرهيبة ، فقد شرع فابيوس فى العمل بلا أبطاء . وكان أول إجراء أتخذه هو السيطرة على حالة الفزع التى سادت المدينة واعادة النظام إليها . وعين حراسات قوية على أبواب المدينة لمنع أى شخص من مغادرتها .

واذاع فابيوس اسماء قتلى معركة كاناى ، فأقيم فى كل بيت مأتم

وراحت النساء تتدافع إلى المعابد ، وينظفن درجات المذبح بشعورهن وهن يولولن على من فقدن .

وبدأ الخوف يحل محل الاضطراب فى نفوس الدهماء . وتركزت كراهيتهم كلها فى رجل واحد ؛ هانيبال . وراحوا يتساءلون . إلى أين سيذهب . ؟ ولأول مرة سرت شائعة تقول : إن هانيبال على أبواب روما .

ولكن هانيبال لم يزحف على روما :

فلماذا ؟ .

لأن ١٧٠٠٠ جندى من الرومان الذين فروا من المعركة كانوا له بالمرصاد خارج روما ، كما كانت بعض الحاميات الرومانية لاتزال تحتل مدنا استراتيجية هامة ، وأهم من ذلك أن القوات الرومانية كانت لا تزال تسيطر على نهر بو وقاعدة صقلية بينما كانت جيوش الاخوين سبيو تعمل فى إسبانيا حيث تسيطر أساطيل الرومان على البحر . .

أما عن حصار روما ، فرأى هانيبال استحالة اجرائه لعدم وجود المهندسين المدربين وأدوات الحصار معه ، وأكثر من هذا لأن قيامه بأى هجوم على روما معناه الدخول إلى أرض العدو وهو عمل غير مأمون العاقبة .

ولم يغب عن هانيبال أن جيشه أصبح فى حالة من الاعياء لاتمكنه من استئناف الزحف على روما ذاتها . .

ولهذا لم يستجب لدعوة بعض قواده المتحمسين بالزحف على روما . .

وبقى هانيبال بجيشه على نهر أودينوس .

كارثالو يذهب إلى روما :

كان معسكر القرطاجنيين يشرف على البحر الادرياتيكى حيث ندر أن تظهر هناك سفن كبيرة . . فبعد شروق شمس اليوم الرابع من أغسطس ، خرج من جون صغير زورقان كبيران ، وانطلقا جنوبا لحمل أنباء معركة كاناى إلى سيراكيوز ومنها إلى قرطاجنة ، وفى الوقت ذاته ذهب رسل إلى الشمال سالكين الطريق الساحلى غير المطروق حاملين رسائل إلى رؤساء قبائل البوى والانسوبر مؤداها أن آخر حاجز قد حطم ، وآخر جيش قد نكل به وأن الطريق الآن معبد لثورة شعوب إيطاليا .

وعلى نهر أودينوس قضى القرطاجنيون صباح يوم ٤ أغسطس فى جمع النفائس والغنائم من ميدان المعركة . . وأمر هانيبال بحفر

خندق لحصر الجنود الذين فروا بينه وبين النهر ، وأدى ذلك إلى استسلام ٧٠٠٠ جندى رومانى آخرين بعد أن وعدهم هانيبال باطلاق سراحهم بمجرد دفع الفدية . . وعبر النهر دارت مناوشة شديدة بين جنود معسكرات الرومان التى تحتوى على مهمات ومؤن الجيش الرومانى ، ولكن هذه المناوشات لم تلبث أن انتهت باستسلام ٨٠٠٠ جندى رومانى منهوكى القوى .

وقد تحدث هانيبال إلى الأسرى بلهجة لا تشف عن أية خصومة فقال : قد يدور بخلدكم أنى أقوم بحرب إبادة ولكن هذا الظن خاطىء . فما سعيت إلى القتال إلا لوضع حد لسيطرة روما ورغبة مجلس شيوخها فى استعباد الشعوب من قرطاجنة الجديدة إلى صقلية ولقد عقدت العزم على أن أحقق هذا الهدف . أما أنتم فقد قاتلتم ببسالة نادرة وبشرف ولسوف يطلق سراحكم بمجرد دفع فديتكم ولقد أردت أن تكونوا على ما أقول شهود . .

وحدد هانيبال فدية ٥٠٠ دينار للفارس و ٣٠٠ للبيادة و ١٠٠ للرقيق . أما الجنود الذين جندوا من مناطق حلفاء روما فأطلق هانيبال سراحهم بدون فدية جريا على مأثور سياسته ورغبة منه فى أن يعرف وقع عودتهم على مجلس الشيوخ والرأى العام الرومانى

ولأول مرة أمر هانيبال بأن ترسل جميع النقود الفضية التى وجدت فى ميدان المعركة إلى خزانة الجيش أو بالأحرى خزانته بعد أن انقطع اتصاله بموارد الفضه فى أسبانيا .

وأطلق هانيبال سراح عشرة من الأسرى الرومان بعد أن جعلهم يقسمون على العودة إلى معسكره وطلب إليهم أن يذهبوا إلى روما لاحضار الفدية ..

وزيادة فى الحيطة أوفد هانيبال مساعده كارثالو مع الرسل الرومانيين ..

وزود هانيبال مبعوثه بتعليمات محددة : إذا أبدى الموظفون الرومان ميلا إلى سلام فإن على كارثالو أن يعرض عليهم شروطاً عادلة . .

وعاد كارثالو بمفرده فى مدى أيام . وقال أن حراس بوابة روما رفضوا السماح له بدخول المدينة وأنذروه بالرحيل قبل غروب الشمس ..

وبعد مضى أيام أخرى عاد تسعة من المندوبين الرومان العشرة بعد أن تنكر العاشر لقسمه ولم يعد ، وقالوا أن مجلس الشيوخ قرر رفض دفع أية فدية .

ولعل هانيبال لم يكن يتوقع أكثر من ذلك ، وإن كان من

المحقق أنه كان يتمنى إقرار السلام بعد معركة كاناى .

وقد تبين حينذاك أن بعض العناصر الرومانية استطاعت الأفلات من مذبحة كاناى من بينها بابليوس سبيو وبعض الضباط ممن اعتقدوا أن الرومان خسروا الحرب ، فبادروا بالفرار قبل أن يتم حصار الجيش وابادته ثم رحلوا إلى صقلية .

وفى النهاية تجمع ١٠,٠٠٠ جندى رومانى مع فارو ، القنصل الذى بقى على قيد الحياة ، عند مفترق طرق فينوسيا ، وأبلغوا روما أنهم على استعداد للنزول إلى ميدان المعركة من جديد .

وعندما عاد فارو نفسه إلى روما للتشاور ، قابله فابيوس عند شارع ساكرا وشكره علنا لأنه لم يخذل الدولة الرومانية ، فأعلن فارو تعيين فابيوس ديكتاتوراً .

وتملكت مدينة روما حمى مجنونة فى تلك الآونة ، فقد أطلق سراح المسجونين ليحملوا السلاح ، وأعلنت حالة التقشف ، وفرضت ضرائب جديدة . .

وفى تلك الأثناء جاء مبعوثو هانيبال من الأسرى الرومان يعرضون شروطه وهى طلب الفدية لاطلاق سراح الأسرى .

وبرغم لهفة الرأى العام ، فقد قرر مجلس الشيوخ رفض العرض بحجة أن سلوك هؤلاء الأسرى لا يتلاءم مع الروح العسكرية الرومانية وهى الانتصار أو الموت فى ميدان القتال . . وإنه كان ينبغى عليهم أن يحاولوا اقتحام معسكر الأعداء مثل الكثيرين الذين فعلوا ذلك وعادوا للدفاع عن وطنهم .

وعندما علم مجلس الشيوخ إن تسعة من المندوبين عادوا لابلاغ قراره لهانيبال وإن العاشر حنث بوعده ، أمر بالبحث عن هذا العاشر . وعندما عثر عليه أعيد للقرطاجنيين تحت الحراسة

ولكن هانيبال استطاع أن يحصل على الفدية التى أرادها من تجار رقيق ديلوس . . وثارت ثائرة روما حينما علمت أن جميع رجال جيشها الذين أسرهم الجيش القرطاجنى أصبحوا رقيقاً أذلاء وأنهم شكلوا على هيئة فرقتين ليدافعوا عن صقلية بدون مقابل .

وقفت روما طوال شهر أغسطس وهى تعزز استحكاماتها استعداداً للغزو المرتقب . . ولكن هانيبال لم يذهب إلى روما وإنما انطلق إلى نابلى .



وهنا لابد لنا من كلمة عن الأحداث التى كانت تقع فى الجهات الأخرى.

فبعد معركة كاناى بأيام قليلة ظهر أسطولان بحريان قرطاجنيان أمام جزيرة صقلية ، وقد مر أحدهما من أمام ميناء سيراكيوز بغير ماسبب ظاهر ، ثم اختفى .. وأقلق ذلك بال القائد الرومانى فأرسل يطلب العون من مجلس الشيوخ بروما . وبرغم الكارثة التى حلت بالرومان ، فقد بعث مجلس الشيوخ ٢٥ قاربا كبيراً للقائد وطلب اليه أن يتصرف حسبما يراه فى مصلحة الدولة .

وهكذا راح القـــواد الرومان يراقبون البحر الضيق الذى يفصل سيراكيوز عن قرطاجنة . .

وقد حدث ذلك قبل وفاة هيرو الثانى طاغية سيراكيوز الموالى لروما . وراح عملاء قرطاجنة يعملون بنشاط فى سيراكيوز وسرعان ما أعلن موظفو المدينة من اليونانيين الولاء لقرطاجنة .

وعلى بعد أكثر من ٥٠٠ ميل شمالا ، نصب البوى والانسوبر فخاً لجيش رومانى قوامه ٢٥٠٠٠ جندى ، ونكلوا به وقتلوا قائده . وكانت إحدى فرقتى هذا الجيش مكونة من الأسرى الرومان الذين باعهم هانيبال لتجار الرقيق . .

وعلم هانيبال بكل هذا . وعندئذ قرر الرحيل من شاطىء البحر الادرياتيكى الذى قدم له أجل الخدمات . وزحف عبر تلال الابنين. فأغلقت بعض المدن أبوابها ، ولكن فلاحى أبوليا ـ منطقة كاناى ـ والسامنين الأشداء تجمعوا وأعلنوا مسالمتهم لهانيبال وعلى الساحل الجنوبى الغربى ـ رحبت المدن اليونانية بالقائد القرطاجنى.وجاء إلى معسكره مندوبون من كابوا ليناقشوا شروطه فنحهم هانيبال كل ماطلبوه من الحرية. والحماية ، وعدم الاشتراك فى الحرب .

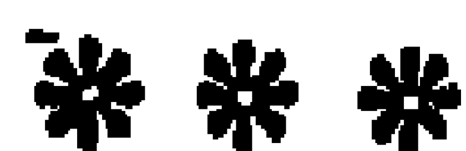
ثم قاد جيشه الكبير الظافر جنوباً إلى نابلى الميناء الكبير على الساحل الجنوبى . .

وحينما وصل هانيبال إلى البحر أرسل أخاه الأصغر ماجو إلى قرطاجنة ، وأمام مجلس المدينة ، أدلى ماجو بتقرير مستفيض عما حدث فى كاناى ، والاتفاقات التى أبرمت مع أبوليا وسامنيوم وكالابريا ـ وسكب ماجو من سلة معه ٦٠٠٠ خاتما ذهبياً لنبلاء روما الذين قتلوا فى كاناى .

وطلب ماجو من المجلس أن يرسل لهانيبال ٤٠٠٠ جواد

نوميدى و ٤٠ فيلا وكمية من النقود الفضية وبرغم معارضة خصوم أسرة بارسا ، فقد قرر المجلس ارسال جميع ماطلبه هانيبال .

كما قرر إرسال ٢٤٫٠٠٠ جندى من المشاة والفرسان إلى اسبانيا .. وكان الغرض من ذلك أن يتمكن هاسدروبال من تحطيم جيش الأخين سبيو الموجودين على نهر ابرو ، واللحاق بهانيبال فى إيطاليا لتدمير قوة روما نهائياً ..



وعندما دنا فصـــل الشتاء رأى هانيبال أن يكيل لأسطول روما البحرى أول ضربة .

كان يعلم أن أساطيل العدو التى يجب التغلب عليها بطريقة ما تعتمد ولا ريب على القوات المقاتلة الموجودة على السفن . فهل يمكن الاستغناء عن القوات التى يجب أن توجد على ظهر هذه السفن بعد معركة كاناى ؟ لم يكن فى استطاعة هانيبال أن يجيب على هذا السؤال ، ولكنه كان يعلم أن الأساطيل تعتمد أيضا على قواعدها فى سيراكيوز ونابلى وتارنتم ولوكرى ورجيوم وغيرها من الاماكن . وكانت سيراكيوز قد طارت فعلا من يد الرومان ،

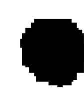
بينما كان جيش قرطاجنة يغذ السير إلى نابلى . وأهم من ذلك كله أن بحارة السفن كانوا ينتمون إلى القواعد التى ترسو السفن فيها ـ ومن ثم فانهم أكثر إخلاصاً لبلادهم منهم لروما .

وعندما أصبح ابن هاملكار قريباً من نابلى تبين له أن المدينة الصغيرة عززت استحكاماتها ضده ، ولما كان الشتاء على الابواب فقد رأى ألا جدوى من حصار مرفأ مفتوح من ناحية البحر ، ومن ثم مضى بجيشه إلى كابوا ملكة الارض الجنوبية .

وكانت كابوا تعنى أكثر من معسكر شتوى مريح لجيشه . . وكان من الممكن أن تصبح عاصمة حلف جديد ضد مدينة روما

# الفصل الرابع

## صراع الحلفين



عندما دخل هانيبال من بوابة كابوا تخلى عن دور المحارب ليصبح دبلوماسياً . .

ونزل القائد القرطاجى فى قصر الأخوة سيلرس ، وطلب الاجتماع بمجلس المدينة ، وقد استقبله النبلاء مرحبين وطافوا به فى أرجاء المدينة التى انتشرت فى أرجائها تماثيل آلهة الإغريق

ودعا هانيبال كبار النبلاء لتناول طعام العشاء معه فى المنزل الذى نزل فيه ، وتحدث إليهم باللغة اليونانية التى كان يجيدها ، وبينما كان يتحدث إليهم باحترام راح يقرأ ما يجول بخواطرهم . فأدرك أنهم قوم متكبرون ، ولم يعجب لذلك لأن مدينتهم من أعرق مدن إيطاليا وأكبرها

وشعر هانيبال بأنه محاط بجو من الصداقة فى مدينة كابوا ..

وبرغم أن جيشه احتل المدينة فعلا فإن هانيبال أصدر أمره بأن يدفع الجنود ثمن كل ما يشترونه

ومع أنه كان من المفروض أن يستسلم هانيبال للراحة أثناء الشتاء إلا أنه كثيراً ما كان يمتطى صهوة جواده ويخرج إلى الوادى مستكشفاً ، وكثيراً ما كان يمر بالسهل الذى نصب فابيوس له فخاً فيه ، ولكنه استطاع أن يفلت منه بخدعة الثيران . وقد سره أن يجد المزارعين يعملون فى حقولهم بهذا السهل ، ولا يعتبرونه عدواً لهم بل صديقاً يحنو عليهم

وقبل أن ينتهى الشتاء الأول كان هانيبال قد ظفر بتأييد بعض الفلاحين البيزنطيين المقيمين على شاطىء البحر الأدرياتيكى .. وسرعان ما أيقن هانيبال أن العناصر الشعبية فى جميع المناطق المجاورة تؤيده من قلبها على حين كان النبلاء ينفرون منه ويرهبونه ..

واكتشف هانيبال أيضاً أن المدن الساحلية الغنية ـــ ذات الصلة بالأسطول الرومانى ـــ تؤيد روما ، وأهمها مدينة نابلى ذات المرفأ الكبير ( والتى كانت حليفة لروما على قدم المساواة ) ولذلك قرر عزل نابلى من ناحية البر ..

ولتحقيق هذه الغاية أمر هانيبال بعض فصائل من جيشه باحتلال لوكرى وهى مدينة ذات ميناء صغير تقع على ربوة فى خليج تارنتو الجنوبى . وما كادت هذه الفصائل تحل بالمدينة حتى شرع أهلها فى إخلائها ولكن هانو استطاع إقناعهم بالبقاء ، وبذلك حصل هانيبال على مكان للهبوط من البحر . وبعد ذلك بفترة قصيرة وصل بوملكار ، أبو هانو ، بقافلة بحرية قصيرة قادماً من قرطاجنة إلى لوكرى . ونزل من السفن عدد كبير من النوميديين بجيادهم و ٤٠ فيلا

وهكذا استطاع جيش هانيبال بإيطاليا أن يعيد اتصاله بحراً بقرطاجنة . .

وفى تلك الأثناء قام هانو برحلة استكشافية وحينما عاد أحضر معه ۱۰٫۰۰۰ من الجنود الأشداء الذين قبلوا الانضمام إلى جيش هانيبال ، وبذلك أصبح فى جيش هانيبال جنود من منطقة سواحل غرب البحر الأبيض المتوسط .. وكما فعل القائد القرطاجنى فى الشتاء الماضى ، فقد نشط فى هذا الشتاء أيضاً لتدريب جنوده الجدد بينما سمح لجنوده القدامى بالاستمرار فى الراحة . .

ولعل هانيبال أخطأ بهذا التصرف إذ يبدو أن جنوده القدامى

أطلقوا العنان لشهواتهم ففقدوا كثيراً من صلابتهم ولهذا قال أحد المؤرخين : « كانت كابوا ككاناى لهانيبال » فإذا أضفنا إلى ذلك أن هانيبال لم يعد إلى استخدام تكتيكه المعروف مرة أخرى ، أدركنا مدى التغيير الذى طرأ على جيشه . .

وانتهى الشتاء بنصر آخر من نوع جديد ؛ فاستجابة للرسالة التى بعث هانيبال بها لفيليب الرابع ملك مقدونيا على أثر معركة كاناى ، أوفد فيليب مندوبين لمقابلة هانيبال . وابرم الفريقان معاهدة تقضى بتوحيد قوات قرطاجنة ومقدونيا ضد روما ، وتعهدت كل مدينة بمساعدة الأخرى إذا ما تعرضت لأى هجوم ، ووافق هانيبال على تحرير ساحل دلماسيا من الرومان وإعادته إلى حكم فيليب .

ثم أقبل وفد جديد من اليونانيين قادما من سيرا كيوز ( كان وكلاء قرطاجنة فى المدينة قد نجحوا فى مهمتهم وحققوا الغاية التى أرادها هانيبال ) وأعرب رجال الوفد عن رغبتهم فى ان يصبحوا حلفاء لهانيبال فابرم القائد القرطاجنى معهم معاهدة دفاع مشترك . .

وهكذا أصبح هانيبال قائد جيوش قرطاجنة ومقدونيا وسيرا كيوز . . وتجمع جيشه حول نيفاتا وبذلك قطع اتصال روما بصقلية براً . ومع ذلك ظلت الأساطيل الرومانية مسيطرة

على الطرق البحرية عن طريق بحر تيرانا وخليج تورنتو والبحر الأدرياتيكى ، وأهم منها جميعاً مضيق مسينا .. إلا أن الرومان فقدوا ميناء سيراكيوز بالغ الأهمية . ولما كان ميناء نابلى على بحر تيرانا وتارنتم على الخليج لايزالان يخدمان الرومان ، فقد ركز هانيبال تفكيره فيهما ..

وفى كل شهر كانت القوافل البحرية تبحر خلسة من ميناء قرطاجنة الداخلى إلى البحر ..

وخلف هذا الصراع بين الحلفين الرومانى والقرطاجنى وقف الجنوب ضد الشمال .. الثقافة الهيلينية ضد العسكرية البربرية .

### تنظيم جديد :

أدى ظهور هانيبال فى كالابريا المجاورة لروما إلى زعزعة ثقة الرومان فى حظهم ، ومما زاد الطين بلة أن حلفاءهم بدأوا يتناقصون باطراد ، وهكذا أصبح مصير روما نفسها معلقاً على إخلاص ما تبقى لها من حلفاء . وفى ذلك العام ( ٢١٥ ) اضطر مجلس الشيوخ إلى فرض ضريبة مضاعفة على حلفاء روما مع مضاعفة عدد المجندين الذين يقدمونهم للقتال فى صفوف الجيش الرومانى .

وكان فابيوس يدرك أن الضغط على حلفاء روما الباقين قد يعرض تحالفهم معها للخطر ولذلك لجأ إلى استغلال الشعور الدينى لتقوية الروابط بين الفريقين وتكتيلهم ضد العدو الأفريقى : هانيبال .

وعمد فابيوس إلى إجراء آخر ، فسمح للمدن التى كانت خاضعة لروما بادارة شئونها الداخلية بنفسها ، وضم بعض الرجال الممتازين فى هذه المدن إلى عضوية مجلس شيوخ روما .

وألحق فابيوس جنود حلفاء روما بجناحى الجيش الرومانى تحت قيادة ضباط رومان .

وقد أثارت هذه الاجراءات العنيفة استياء حلفاء روما ، فتمرد كثير من المجندين وعندئذ نكل الرومان بزعمائهم حتى لقد قيل أن ٣٧٠ منهم قذفوا من فوق صخرة تاربيـــان فسقطوا قتلى . وفى الوقت ذاته رفض مجلس شيوخ روما تخفيف مطالبه من حلفاء روما ، وأرسل حملات تأديبية لاعادة النظام فى المدن التى بدت فيها بوادر التمرد .

وامتد الارهاب إلى الرومان أنفسهم . إذ راح المراقبون يبحثون عن المتذمرين ومعاقبتهم بشدة وبينما كان هذا يحدث فى

المعسكر الرومانى ، كان هانيبال يبرم المحالفات مع المدن المتذمرة من روما ويحصل منها على حاجة الجيش من الطعام والشراب والجياد والأسلحة للقضاء على روما .

أما مدينة تارنتم فاضطرت إلى ترك بعض شباب أسرها العريقة رهائن فى روما ثمنا لسلوك مجتمعها المتمرد . وقد حاول هؤلاء الرهائن الهرب بعد موقعة كاناى بفترة من الوقت ولكن الرومان إستطاعوا القبض على ثمانين منهم وألقوا بهم من فوق صخرة تاربيان ، فأثار ذلك ثائرة اسرهم ، وبعث التارنتميون برسل للتحدث مع هانيبال فى ذلك .

وأدى فقدان سيراكيوز إلى اصابة زعماء مجلس شيوخ روما بصدمة عنيفة نظراً لوفرة مواردها وتفرد موقعها . ومما زاد الطين بلة أن تمردت سردينيا ، بينما أبرم ملك مقدونيا معاهدة مع هانيبال .

وبرغم هذه الأنباء المزعجة ، مضى زعماء روما فى تعبئة جميع الموارد المتاحة لهم إستعداداً لليوم الفاصل .

وعهد مجلس الشيوخ الرومانى إلى ضابطين محنكين هما كراسكوس

وماوسيلوس بمنصب نائب قنصل ومنحهما سلطات غير محدودة لمدة عام . وسرعان ما أصبح لقب مارسيلوس « سيف روما » .

ونزل فابيوس نفسه إلى الميدان مرة أخرى .

وأسرع مارسيلوس إلى نولا خط الدفاع الخارجى عن نابلى حينما تبين أن هانيبال بدأ حصار نولا .

## فتح أبواب تارنتم :

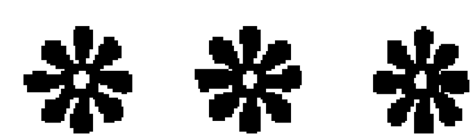
كان هانيبال لا يزال يتجنب الهجوم على أية مدينة حولها أسوار وتستعمل الآلات فى الدفاع عن نفسها ، ولهذا كان يكتفى بمحاصرتها وقطع الطعام عنها . وقد اضطرت كاسيلينوم إلى الاستسلام أخيراً بعد أن كاد أهلها يهلكون جوعاً . وكان هانيبال يعود ادراجه بعد كل جولة إلى نولا المدينة التى تتحكم فى الطرق المؤدية إلى نابلى حيث كان أهلها يرحبون به أجمل ترحيب .

وأبدى مندوبو السامنيين تذمرهم لأن الحملات التأديبية المرسلة من نولا خربت أراضيهم ، فأرسل هانيبال فرقة لمحاصرة أسوار نولا ، وهناك واجه تكتيكا جديداً من دفاع قوى تولاه مارسيلوس

فقد أمن القائد الرومانى مداخل المدينة ، ثم خرج بفرسانه منها فجأة لملاقاة القرطاجنيين .

ودارت بين الفريقين معركة حامية . ولأول مرة منذ بدأت الحرب بين قرطاجنة وروما أصيب جيش قرطاجنة بخسائر فى الارواح تفوق خسائر جيش روما .

وفجأة ، أختفى القرطاجنيون من ميدان المعركة ذات ليلة . . فتحرك القائد الرومانى إلى الامام بحذر لمعرفه الطريق الذى يسلكه جيش هانيبال ، ولكن هانيبال كان قد أبتعد بجيشه حيث سلك التلال المؤدية إلى تارنتم ومعه رجلان من رجال المدينة عرضا عليه أن يمهدا له سبيل الدخول من بوابة المدينة .



بعد أن أخفق القرطاجنيون فى نابلى ونولا قرروا إلا يفلتوا فرصة التسلل إلى ثانى ميناء كبير فى الجنوب . وفعلا إستطاع القرطاجنيون الاستيلاء على تارنتم بالحيلة والخداع .

وحينما عرف القائد الرومانى الحقيقة بادر بركوب سفينة كانت راسية فى الميناء ولاذ بالهرب إلى القلعة .

وعندما طلع النهار كانت المدينة فى قبضة هانيبال .

ولكن قلعة المدينة المشيدة عند فتحة الميناء ظلت فى قبضة الرومان . وهكذا تعذر على هانيبال الافادة من الميناء .

* * *

وفى ليلة أخرى وقع هجوم من نوع مختلف جدا فى ميناء آخر . حاول القائد الرومانى الهجوم على سيراكيوز من ناحية البحر . وكان اسطول الغزو بقيادة مارسيلوس شخصياً ولكنه فشل لقوة الدفاع عن أسوار الميناء .

ولم يفت الفشل فى عضد الرومان ، فحاصروا الميناء حتى استطاعوا أن يتسللوا إليه بالخيانة ذات ليلة حينما كانت الحامية تحتفل بإحدى المناسبات .

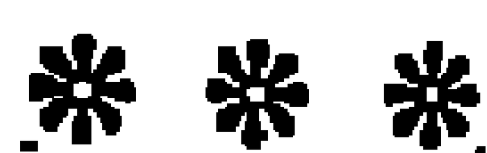
وما كادت الفرق الرومانية تسيطر على الميناء حتى بدأت تعيث فى المدينة فساداً .

وانتشر نبأ استيلاء الرومان على سيراكيوز فى الجزيرة ، فأثار المقاومة فى القسم الغربى فبعث هانيبال قائداً نوميديا لقيادة جيش قرطاجنة الذى كان يواجه مارسيلوس ، لأن مضيق مسينا كان يعترض طريق هانيبال نفسه للوصول إلى صقلية .

* * *

بعد معركة كاناى حاول هاسدروبال أخو هانيبال أن يطيع الامر ويشق طريقه بين جيشى الأخوين سبيو ويزحف على إيطاليا ؛ إلا أنه أساء التصرف فأدى ذلك إلى تحطيم جيشه على خط ابرو ، وراح الحذران سيبو يدفعان جيش هاسدروبال إلى جنوب أسبانيا .

أما حملة بوملكار إلى سردينيا فاستطاعت مراوغة أسطول الحراسة الرومانى ، ولكن العواصف اضطرتها للالتجاء إلى جزر البليار التى كانت دائماً صديقة لقرطاجنة ، وعندما استطاعت هذه الحملة أن تنزل على شاطىء سردينيا الصخرى ،كان توركواتس اليونانى قد استطاع سحق ثورة أهل الجزيرة ، ثم قضى على حملة قرطاجنة بسبب سوء تكوينها . .



## انتخاب مساعد قنصل لأسبانيا :

حدثت كاناى أخرى فى أسبانيا ! فقد قتل مساعدا القنصل بابليوس وسبيو اللذان كانا يتوليان قيادة الجيش الرومانى ، وأبيد جيشاهما تقريباً ، وهربت فلولها بلا قواد إلى ابرو .

وأزعجت هذه الأنباء الخطيرة مجلس شيوخ روما ، إذ تبين أن سبب الهزيمة أن جنود السلت تخلوا عن الجيش الرومانى بسبب صداقة بلادهم لاسبانيا ، ثم ظهر شـــاب نوميدى هو ماسينيسا أمام الجيش الرومانى واستطاع أن يغرر بفرقه حتى أحاط الفرسان القرطاجنيون بهذه الفرق ، وتمكن بعد ذلك من فصل جيش الأخوين سبيو عن بعضهما والفتك بكل منهما على حدة بمعاونة أخوى هانيبال، هاسدروبال وماجو وقائد قرطاجنى ثالث . وهكذا لم يعد الطريق مفتوحاً إلى أبرو فحسب وإنما أيضا إلى جبال الألب . .

وفى إيطاليا نفسها كتبت السيادة لهانيبال فقد أصبحت معسكراته الأمامية شرق جبـــال الابنين وغربها فى لوكريا وكاسيلينيوم على بعد ١٥٠و١١٠ ميلا من المدينة الواقعة على نهر التيبر . ولقد نصب القرطاجنيون فخاً لأكثر قواد الفرسان الرومان جرأة ، سمبردنياس جراسكوس حينما كان يستحم فى النهر وقتلوه ثم أرسلوا جثته مع كارثالو ، وهو مدنى قرطاجنى الرومان .

وهكذا أبيد القواد الرومان، ولم يتبق منهم غير مارسيلوس

الذى كان يستطيع الصمود أمام الافريقيين المراوغين ، إلا أنه لم يكن فى الإمكان الاستغناء عنه فى إيطاليا وإرساله لتدعيم خط القتال فى جبال برنيز بأسبانيا .

وحينما حان موعد الانتخابات فى عام ٢١١ واجه مجلس شيوخ روما موقفاً عصيباً ، فلم يكن هناك أمل فى الحصول على القمح من سردينيا بعد أن دمرتها الحرب ، ولا من صقلية التى اجتاحها وباء ولقد كانت حركة التطهير الدموية التى قام بها مارسيلوس وسيلة فعالة للقضاء على التمرد وإعادة النظام إلا أنها حرمت الزراعة من أياد كثيرة . وفى الوقت ذاته لم يكن مفر من تسريح الأرقاء الذين ضموا إلى الفرق الرومانية بعد معركة كاناى لأنهم كانوا يعرقلون عمل الجيش ولا يهتمون إلا بالسلب والنهب .

وهنا برز محامى شاب اسمه بابليوس كورنيليوس سبيو على المسرح . . كان فى الثانية والعشرين من عمره ، وهو ابن القائد السابق الذى قتل فى أسبانيا . وقد اشتغل بالسياسة وانتخب عضواً فى مجلس الشيوخ .

كان بابليوس كورنيليوس سبيو شاباً متقشفاً يكثر من التردد على معبد جوبيتر بالليل ويخلو الى نفسه هنالك حتى سرت شائعات

بأن الإله تبنى هذا الشاب وبالأخص لما كان يبديه من نفور من النساء وتباعد عنهن . .

وقرر أعضاء مجلس الشيوخ انتخاب الشاب سبيو لتولى القيادة فى أسبانيا بوصفه نائب قنصل .

وكان سبيو الصغير شاباً طموحاً ، حاد الذكاء، فاستطاع أن يستنتج ماغاب عن أسلافه من كبار القواد وذلك أن هانيبال يخدم قرطاجنة لا نفسه . .

وقرر سبيو أن ينفذ خطة أبيه .. السعى إلى النصر عن طريق غزو أسبانيا باعتبارها قنطرة إلى إفريقيا .

## نبتون فى قرطاجنة الجديدة :

نزل سبيو إلى البر مع فرقتيه فى أمبوراى شمال ابرو ، وكانت فلول الجيش الذى هزم قد تجمعت هنـــاك مع النجدات التى أوفدتها روما .

وبحث سبيو عن الضابط الذى تولى القيـادة بعد الفاجعة ، وسرعان ماعثر عليه . . كان اسمه لوسياس ماركيوس ، وكان شاباً فى مثل سن سبيو ، فاستبقاه سبيو إلى جانبه واعترف له بصراحة

بأنه يجهل جميع ظروف الجبهة الأسبانية . .

وعقد سبيو اجتماعات عديدة مع رجال الجيش تحدث فيها عن وجهة نظره . فقال إن هزيمة الجيش الرومانى نتجت عن تقسيمه إلى قسمين ، ووعدهم بألا يحدث ذلك مرة أخرى

وعلم سبيو أن قيادة ماجو قضت فصل الشتاء بالقرب من جبل طارق بينما كان هاسدروبال ينتظر فى أراضى كانتبريا والجيش القرطاجنى الثالث بالقرب من الأطلنطى، أى أن الجيوش القرطاجنية الثلاثة كانت تبعد مسيرة عشرة أيام عن قاعدتها فى قرطاجنة الجديدة . .

وعندما أوشك الشتاء على الانتهاء قاد سبيو جيشه جنوباً ، وكان الأسطول يرافق الجيش من البحر

وحينما أشرف سبيو بجيشه على قرطاجنة الجديدة وعد بمنح اول جندى يستطيع تساق سورها تاجا من الذهب ، وقال لجنوده أن نبتون ظهر له فى الحلم ووعده بالعون والمساعدة

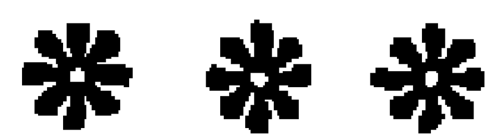
وبدأ سبيو هجومه على سور المدينة . وبعد الظهر استصحب ٥٠٠ جندى ومعهم السلالم وذهبوا إلى الخليج فى الناحية الشمالية

من المدينة . وخاض سبيو ومن معه الماء حتى بلغ سيقانهم، ثم أمر سبيو رجاله بوضع السلالم على السور

وحينما هبط الرومان فى الشوارع ألفوها نصف مهجورة . .

وهكذا استطاع جيش سبيو أن يعصف بقلعـــة قرطاجنة الجديدة فى أقل من سبع ساعات واستولى فى يوم واحد على الميناء الوحيد الكبير الذى يحمى القوافل البحرية القادمة من أفريقيا ..

وقد أثار هذا النصر الخاطف حماس الرومان لأنه كان نصراً غير متوقع ، فبدأوا يستردون ثقتهم بأنفسهم . .



فى هذه المرحلة الحرجة أى فيما بين عامى ٢١٢ و ٢١٠ كانت تحركات هانيبال غامضة ؛ ولذلك تعذر على المؤرخين أن يتكهنوا بما كان يعتمل فى نفسه من آمال أو مخاوف ؛ بيد أنه من المحقق أنه استطاع أن يفلت من مراقبة أعدائه . .

وحرص هانيبـال على تعزيز استحكامات مدينة تيغانا التى اتخذ منها مركزاً لقيادته ، كما دعم الحاميات القرطاجنية التى كانت تحتل معظم مدن جنوب إيطاليا بعد أن فقد كابوا

ذلك أن الرومان حشدوا أكبر قوة لديهم لاستعادة كابوا..
وعندما علم أهالى المدينة بذلك بعثوا إلى هانيبال يستنجدون به ، وكان هانيبال مشغولا حينذاك بمهاجمة قلعة تارنتم ، فأوفد هانو وفرسانه لمساعدة أهل كابوا ، واستطاع هانو أن ينزل بالرومان خسائر فادحة ، ولكنه لم يستطع فك الحصار المضروب حول المدينة .. وعاد جيشا القنصلين الرومانيين إلى الإطباق على المدينة فاستغاث أهل المدينة مرة أخرى بهانيبال الذى جاء بنفسه هذه المرة ومعه المشاة والفيلة . ونشبت بين الفريقين معركة حامية ، وبرغم الخسائر الفادحة التى منى بها الفريقان فقد تشبث الرومان بمواقعهم فى عناد .. وعندئذ أدرك هانيبال عقم الاستمرار فى المحاولة فبعث إلى الأهالى المحاصرين برسالة طالبهم فيها بالمضى فى المقاومة عدة أيام

ثم انطلق هو بجيشه فى طريق روما

## « لم يأت لمحاضرة روما » :

فى تلك الليلة جمع القرطاجنيون كل القوارب التى استطاعوا الحصول عليها وعبروا النهر مع فيلتهم تحت جنح الظلام . وعلى

الشاطىء الثانى انضم إليهم فرسان هانو وماجو الذين كانوا يغطون زحفهم شمالا ، فإذا طلع النهار كان القرطاجنيون قد ابتعدوا كثيراً عن كابوا . .

ترى هل كان هانيبال يرغب فى مفاجأة المدينة الكبيرة على نهر التيبر بعد انقضاء سبع سنوات على بدء القتال ؟ إن الطريقة التى رحل بها عن كابوا إلى روما توحى بذلك .

وبعد مسيرة عدة أيام، سمح هانيبال لطوابير جيشه بالاستراحة يوماً ، وفى اليوم التالى انتشر فرسانه على شكل مروحة فى السهول وأحرقوا المحاصيل التى أوشك حصادها أن يتم ونشروا الذعر بين السكان . . وحمل الرسل أنباء هذا الزحف إلى نائب القنصل الذى كان يحاصر كابوا وإلى أبواب روما .

ولم يستأنف هانيبال الزحف نحو روما، ويبدو أنه كان يتعمد افساح الوقت أمام أعدائه ليروا خط زحفه ، ، بل وأن تتبادل روما الرسائل مع القائد الذى يحاصر كابوا، ولعل غايته من ذلك كانت حفز الجيش الذى يحاصر كابوا على رفع هذا الحصار والمبادرة بالحضور لملاقاته لمنع هجومه المرتقب على روما .

وكاد مجلس شيوخ روما يصدر قراراً باستدعاء الجيوش فى

كابوا لولا تدخل فابيوس الذى كان يعرف الشىء الكثير، فقد راح يؤكد للمجلس أن هانيبال الذى فشل فى اقتحام كابوا لن يستطيع اقتحام أسوار روما المنيعة .. وأضاف بأن هانيبال ثعلب ماكر ماجاء إلى روما إلا ليرغم الرومان على رفع الحصار عن كابوا .

وهكذا اكتفى مجلس الشيوخ بمطالبة قائدى جيش كابوا باعادة الفرق التى يمكن الاستغناء عنها دون إضعاف للحصار ، وفعلا أرسل القائدان ١٥٠٠٠ جندى ، وقد تأخرت عودة هذه القوات نظراً لما تبين لها عندما حاولت عبور النهر من أن هانيبال أحرق القوارب التى استخدمتها قواته فى عبور النهر .. ومع ذلك فقد بلغت القوات الرومانية أبواب المدينة من الجهة الجنوبية قبل أن تلوح طلائع قوات هانيبال على خط الأفق ، .

وعسكر هانيبال بجيشه على بعد ثلاثة أميال من المدينة. وأخذ معه حرساً من الفرسان ثم ارتقى ربوة عالية خارج بوابة كولينا وراح يتأمل السور المواجه له ..

ولاحظ أن هناك حراسة قوية على السور مدعمة بالآلات .. وقال له جواسيسه أن بالمدينة حامية مكونة من ثلاث فرق، بينما

أخذت الامدادات التي جاءت من كابوا مواقعها في السهل تحت حماية الأسوار ، ومع أن عدد المدافعين تجاوز ٣٥٠٠٠ جندى إلا أنهم لم يحاولوا الخروج لملاقاة المهاجمين ، بينما راح القرطاجنيون يعيثون فى الأرض فساداً . .

وفجأة ، اختفى هانيبال بجيشه وفيلته ، ولم يترك فى هذه المرة أثراً يدل على وجهته . .

نهاية مدينة :

عندما اختفى هانيبال من ضواحى روما توقع مجلس الشيوخ أن يعود إلى كامبانيا ، ولكنه لم يفعل ذلك وإنما مضى بجيشه جنوبا إلى أن بلغ طرف إيطاليا الجنوبى . وهناك انقض على رجيوم ميناء النزول الرومانى إلى صقلية أمام مسينا .

ويبدو أن هانيبال أراد بهذه الحركة غير المتوقعة أن يقدم معونة فعالة لأساطيل قرطاجنة البحرية ذات الأهمية البالغة وكانت هذه الأساطيل لاتزال تحوم حول الجانب الغربى من صقلية وتهاجم سردينيا وتحاول نقل المقدونيين عبر الادرياتيكى ، ولكنها فشلت فى تحدى سيادة أساطيل الرومان التى كانت تتكون من ٢١٥ سفينة ،

إلا أن أسطول تارنتو اتحد مع الأساطيل القرطاجنية واستطاع الاثنان تدمير الأسطول الرومانى الذى كان يحرس مضيق مسينا ، واستطاع هانيبال أن ينتزع موانىء لوكرى وكروتون ومتابونتام وتارنتم من أعدائه . .

بيد أن رجيوم كانت منيعة ، وعندما فشلت المباغتة فى تمكين هانيبال من الاستيلاء عليها ، تحول القائد القرطاجنى عنها مثلما فعل فى نابلى . .

ثم استسلمت كابوا بعد أن يئست من نجدة هانيبال لها .

ولما كانت أراضيها من أكثر أراضى ايطاليا خصوبة ، فقد استطاع الرومان أن يجعلوا منها مصدراً للانتاج لمصلحة روما .

وأدى سقوط كابوا إلى تحرير الجيوش الرومانية التى كانت تحاصرها ، وجاء مارسيلوس من رجيوم ليتولى قيادة الزحف ضد جيش هانيبال الزئبق .

وكان مارسيلوس شابا صلب العود ، يرى أن خير وسيلة لدحر هانيبال هى أرغامه على الاشتباك فى القتال .

وفى هذه الفترة ( ٢٠٩ — ٢٠٨ ) كان جيش هانيبال قد

أصبح شبحاً متحركا بعد أن انهكت حرب استمرت تسع سنوات قوى رجاله ، وقضت على معظم المحاربين الأشداء الذين عبروا جبال الألب .. أما هانو وفرسانه الأقوياء فلم يظهر لهم أثر . وكان هانيبال وحده هو الذى يعرف حقيقة قوة جيشه واحتفظ بها سراً لنفسه . ثم أنه كان مضطراً للاحتفاظ ببعض الحاميات فى موانئ خليج تارنتو الباقية نظراً لأنها سبيله الوحيد للوصول إلى البحر ، وإذا تركت بلا دفاع فإنها ستسقط حتما فى أيدى العدو

أوشك عام ٢٠٩ على الانتهاء وراح الرومان يتحسسون طريقهم وراء مارسيلوس وهو منطلق جنوباً كالسهم ، بعد أن أصبحت تحركات هانيبال الخاطفة مبعثاً للحيرة . . كان يبدو أنه يدافع عن الموانئ ، وفى الوقت ذاته ينسحب أمام مارسيلوس من مرتفعات برايتوم نحو سهول أبوليا . فيندفع مارسيلوس فى أثره محاولا الاشتباك معه .

وقد كان ، واشتبك الجيشان ، وفى اليوم الأول من المعركة ألقى الرومان بالقرطاجنيين إلى الوراء ، إلا أن هؤلاء أطلقوا فيلتهم على المهاجمين فى اليوم التالى . ولكن الجنود الرومان أطلقوا سيلا من الكرات النارية على الفيلة فارتدت . .

وفى تلك الليلة ألقى مارسيلوس خطاباً حماسياً فى جنوده وطالبهم بالاستماتة فى مهاجمة العدو والقضاء عليه . وأعلن أنه سيتولى قيادة العمليات بنفسه .

وفجأة ، برز جيش هانيبال من وراء أحد التلال واشتبك مع الرومان فى معركة حامية قتل فيها مارسيلوس وجرح القنصل الثانى جرحا قاتلا . وهكذا حرم الرومان من القادة .

وحينما وصلت هذه الأنباء إلى روما أحدثت فيها فزعاً ويأساً قاتلين .

وفى تلك الاثناء ، جاءت الأنباء من أسبانيا تفيد سقوط قرطاجنة الجديدة فى يد سبيو ، فانتعشت آمال الرومان قليلا . وزاد فرحهم عندما وصلت إلى المدينة قافلة كبيرة محملة بالسبائك الفضية ومئات الأسرى القرطاجنيين الذين أسروا فى أسبانيا . .

وبعث مجلس الشيوخ الرومانى برسالة إلى فيليب ملك مقدونيا يبلغه فيها بسقوط قرطاجنة الجديدة . .

وهكذا أخذ ميزان القوى فى البحر الأبيض يتغير أخيراً ، فبدأ نجم روما فى الارتفاع ونجم قرطاجنة فى الأفول .

## سقوط تارنتم .

ظلت قلعة تارنتم تقاوم بعد ثلاثة أعوام من الحصار ، وأخيراً جاء أسطول قرطاجنى قوى ليحاصر القلعة من البحر . إلا أن هذا الأسطول مالبث أن أبحر عندما اقتربت سفن الرومان منه . وهو أمر يدعو للدهشة حقاً .

وهنا سقطت مدينة تارنتم فى يد فابيوس . .

ولم يستطع هانيبال إنقاذها لأنه كان يبعد عنها أكثر من مائتى ميل . .

وفى تلك الاثناء كان هانيبال قد استطاع رفع الحصار المضروب على ميناء كولونيا على بعد أكثر من ١٥٠ ميلا . . وحينما بلغه نبأ تحرك فابيوس ضد تارنتم ، سارع بقواته على طول الساحل . ولكنه سرعان ماسمع بنبأ سقوط تارنتم فقال معقباً : إذن فقد عثر الرومان أخيراً على هانيبال آخر ! » .

وحاول هانيبال أن ينصب فخاً من فخاخه المشهورة للقنصل الكهل ، ولكن فابيوس « المعوق » لم ينخدع . .

وهنا صارح هانيبال ضباطه بالحقيقة . . قال : لقد خسرنا

الحرب فى ايطاليا مالم نستطع أن نحصل على قوة جديدة . .

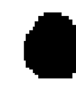
ولم يكن قول هانيبال بعيداً عن الحقيقة .. فقد سقطت تارنتم وسقط معها الميناء الحيوى الذى يصله بحليفته الكبرى مقدونيا . . وسقطت أيضاً قرطاجنة الجديدة وهى مدينته الخاصة ، وفى إيطاليا ذاتها فشل هانيبال فى كسب السواد الأعظم من الشعوب إلى جانبه كما انعدمت كل وسيلة تصله بقرطاجنة فى أفريقيا

وهكذا لم يبق غير احتمال واحد . . لو استطاع أن يعزز جيشه بدرجة كافية ، فن المحتمل أن يتمكن من القضـاء على الجيوش الرومانية المتجمعة فى معركة أخيرة . .

وبعث هانيبـال برسالة عاجلة إلى قرطاجنة يحث فيها أخاه هاسدروبال على المجىء بأكبر عدد ممكن من القوات عبر جبال الألب . . .

# الفصل الخامس

## سبيو ضد هانيبال



كان سبيو شابا حصيفا كما قلنا ولذلك أدرك السر فى ان القرطاجنيين حرصوا على ان تكون لهم ثلاثة جيوش متفرقة .. عرف ان اسبانيا ـ وهي شبه جزيرة شاسعة نصفها من الصحارى ـ ومدنها شديدة التباعد ومواردها محدودة تستدعي وجود قوات كبيرة من الفرسان تستطيع ان تتحرك بسرعة فى هذه المسافات الشاسعة .

ولاحظ سبيو ايضا ان الجيوش القرطاجنية تعسكر على انفراد ، ولكنها تقاتل متحدة . ومن ثم فانه اذا ذهب فى أثر أحد الجيوش فان الجيشين الاخرين لن يلبثا ان يلحقا به كما فعلا مع ابيه وعمه . ولهذا احتفظ سبيو بجيشه الوحيد قريبا من قاعدته فى قرطاجنة الجديدة ومن جبال الفضة الثمينة .

وادرك سبيو انه من العبث ان يقوم بحملة ناجحة فى أسبانيا ما لم يحصل على تاييد ولو جزء من سكانها

وهنا خطرت له فكرة رائعة : ان خير وسيلة لملاقاة هانيبال هى محاكاته . .

واستعد سبيو لاستعمال اسلحة هانيبال ضد هانيبال .

فبعد سقوط قرطاجنة الجديدة امر سبيو جنوده بالتوقف عن أعمال السلب والامتناع عن اساءة معاملة الاسبانيين الوطنيين .

ولقد احدثت هذه السياسة اثرها فعلا . فقد استمالت اليه بعض القبائل الهامة على شاطىء اسبانيا الشرقى . أما سكان انقطاع الاسبانى الشمالى . فلزموا الهدوء . ولكن الكلت الذين كانوا يقيمون فى منتصف اسبانيا ظلوا على ولائهم الشديد لحلفائهم القرطاجنيين

ورأى سبيو ان يعمل على تلافى نقط الضعف الموجودة فى جيشه .. وكان أهم مايشغل باله فى تلك الاثناء تقوية سلاح فرسانه . ولهذا عمل على الاتصال بالمغاربة والنوميديين على الساحل الافريقى المجاور . كما درب فرق المشاة على تكتيك جديد يتسم بسرعة الحركة وسلحهم بالسيوف الاسبانية ذات الحدين . والرماح الحديدية الخطرة التى اكسبت هانيبال سلسلة انتصاراته الاولى ..



وفى صيف عام ٢٠٨ ، ارغم هاسدروبال الرومان على التحرك ضده .. ذلك انه بعد أن قضى الشتاء فى المنطقة الوسطى زحف بجيشه الى الجنوب الشرقى وبذلك هدد مناجم الفضة التى استولى الرومان عليها . وعندئذ أضطر سبيو ان يتحرك لملاقاته بغير ان يعرف اين يمكن ان يكون جيشا قرطاجنة الاخرين ..

### هاسدروبال فى بايسولا أ

قال بوليبيوس : « كان هاسدروبال رجلا باسلا يواجه الهزيمة بروح ابيه البطل العظيم بارسا .. وكان قائدا ممتازا لا يترك شيئا للصدف ولهذا استحق التقدير والثناء »

وليس من شك فى أن سبيو كان يحترم خصمه وبالاخص بعد ان استطاع ان يسخر من القائد الرومانى الكبير نيرو .

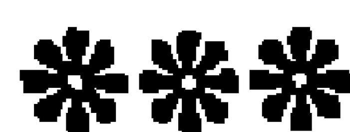
فقد استطاع نيرو ان يوقع بالجيش القرطاجنى فى سهل مقفل مثلما فعل فابيوس مع هانيبال فى ايطاليا . فعمدهاسدروبال الى مفاوضة نيرو ومناقشة شروط الصلح ، واستمرت هذه المفاوضات اسبوعا استطاع جيش هاسدروبال خلاله ان يتسلق السهل المقفل خلفه . وفى نهاية الاسبوع قطع هاسدروبال المفاوضات وخرج هو ايضا من الفخ ـ ثم جاء سبيو ليحل محل نيرو . ومع أن هاسدروبال تقابل ثانية مع نيرو الا أن لقاءهما لم يكن فى اسبانيا

ولعل سبيو لم يكن يعلم أن هانيبال حث اخاه على ترك أسبانيا فى ذلك الصيف . الا أن مجلس الشيوخ اصدر امره الى سبيو بالا يسمح لهاسدروبال بعبور جبال برنيز

ووجد سبيو القرطاجنيين فى واد طويل أسفل مدينة بايسولا . وكان هاسدروبال قد ضرب معسكره فى مسطح من الارض تحميه التلال وباسفله نهر صغير . وتعذر على سبيو معرفة عدد قوات هاسدروبال « الواقع أن جيش هاسدروبال كان مكونا من ٢٥٫٠٠٠ جندى . بينما كان عدد جيش روما ٣٠٫٠٠٠ علاوة على عدد غير معروف من الاسبانيين الذين انضموا اليه »

وبرغم صعوبة قيام سبيو بالهجوم ، الا انه كان مرغما على مهاجمة القرطاجنيين

وقام سبيو ببعض مناورات سريعة بعد معركة حامية مع الفرق القرطاجنية ، وبرغم انه استطاع القضاء على قوات هاسدروبال الخفيفة وقوامها ٨٠٠٠ رجل ، الا ان اقوى فرق هاسدروبال انتهزت الفرصة وأفلتت من المعركة وانطلقت مع قائدها و ٣٢ فيلا الى جبال برنيز ..



لم يستطع سبيو ان يطارد هاسدروبال . لأن الجيشين القرطاجنيين الاخرين كانا له بالمرصاد ، كما كان لابد له من الدفاع عن قرطاجنة الجديدة . ومن ثم ارسل سبيوامدادات الى مصب نهر ابرو عند النقطة التي عبر هانيبال النهر منها منذ عشرة سنوات لقطع طريق هاسدروبال ..

الا أن هاسدروبال مضى شمالا على طول نهر التاج . واثناء زحفه تشاور مع ماجو . واتفق الاثنان على أن يذهب ماجو الى البليار لتجنيد فرق جديدة من رماة الاسهم ثم يعبر البحر بعد ذلك الى شمال ايطاليا حيث يتقابل اولاد هاملكار الثلاثة ثم مضى هاسدروبال بعد ذلك الى البرنيز . وفى الطريق جند كثيرين من الكلت وضمهم الى جيشه . واستمر فى سيره نحو الرون ـ ولكن الخريف كان قد جاء واصبح من العسير عليه ان يحاول عبور جبال الالب .

وعلمت روما بمجيء هاسدروبال .. فسادها القلق . وتطلعت الى فابيوس بلهفة املة الخلاص على يديه بعد ان استطاع هاسدروبال أن يفلت من سبيو

ومرة أخرى شعرت روما بالخطر .. فقد ادركت انها لم تعد تواجه عدوا واحدا هو هانيبال . وانما اصبحت تواجه عدوين خطرين هما هانيبال واخوه هاسدروبال .

وحان موعد الانتخابات .. فانتخب كلوديوس نيرو وليفيوس قنصلان جديدان ..

## رسالة من البو :

عبر هاسدروبال جبال الالب بعد أن ذابت الثلوج (عام ٢٠٧) بسرعة أكثر مما عبرها هانيبال . واكتسح نهر البو فانضمت اليه عصابات قوية من الليجوريين والغال . واستمر جيش هاسدروبال يزحف جنوبا وشرقا كالاعصار المدمر الذى لا يبقى ولا يذر .

ثم وقع حادث واحد أثر فى الموقف كله .. فعندما ترك هاسدروبال نهر البو . بعث برسالة الى اخيه حدد له فيها مدينة امبريا على ساحل الادرياتيكي ليلتقى فيها جيشاهما. وعهد هاسدروبال الى جماعة مكونة من ستة فرسان اربعة منهم من الغال واثنان من النوميديين بنقل رسالته المكتوبة الى أخيه ..

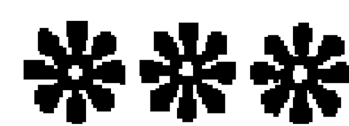
وانطلقت الجماعة الى لوسانيا لمقابلة هانيبال ولكن هانيبال كان قد أقتحم الخطوط الرومانية فى هذه المدينة ليصل الى ساحل الادرياتيكى . وكان يلف فى تلك الاثناء ليجمع شمل جيشه المبعثر وينطلق شمالا .

وحاول الرسل اللحاق به . ولكن الرومان ظفروا بهم . واستولوا على رسالة هاسدروبال فحملوها الى خطوط نيرو فى اوفيداس ..

وحينما حصل نيرو على الرسالة اتخذ قرارا خطيرا .

ترك جيشه ليواجه هانيبال . ثم خرج من منطقة نفوذه ومعه ١٠٠٠ فارس مختارين وانطلق شمالا للانضمام الى الى ليفيوس للافضاء اليه برسالة هاسدروبال بعد أن بعث بهذه الرسالة الى مجلس الشيوخ مشفوعة بما اتخذه من قرار .. ولم ينتظر نيرو رد المجلس . وانما بعث برسل يحذرون المدن والقرى الواقعة على خط الزحف لتعد له مؤنا وجيادا وعربات كان فى حاجة اليها

وكان هانيبال ينتظر الرسالة التى لم تصله فى اودينوس ولكنه لم يستطع أن يتحرك شمالا حتى يعرف الطريق الذى سيسلكه هاسدروبال فى زحفه الى الجنوب ..



تجاوز هاسدروبال مدينة ريمى . فتجمع الرومان شرق

جبال أبنين عند نهر ميتورد . وعندما عبر القرطاجنيون النهر وجدوا خطوط الرومان أمامهم ..

كانت البلاد غريبة على هاسدروبال برغم انه كان يستصحب بعض رجال الغال الذين يعرفون الطرق . فاضطر هاسدروبال الى التاخر قليلا ريثما يدرس الموقف . ولعله كان ينتظر توجيها من هانيبال

ووصل نيرو الى الخطوط الرومانية بالقرب من سنيا جاليكا ليلا . وكان قد أرسل سلفا تحذيرا باخفاء وصوله . وتحت جنح الليل حشر قواته بداخل خيام ليفوس حتى لا يستشعر احد بوصوله ..

وتقرر أن يبدأ جيش الجمهورية الرومانية الهجوم ..

وحدثت بعض اخطاء استشف هاسدروبال منها انه يواجه قنصلى روما ؛ وأن قوة العدو قد عززت ومن ثم سحب قواته وحاول أن يتسلل بجيشه تحت جنح الظلام . وقد بدات حركة الانسحاب على خير حال . ولكن مرشديه لم يستطيعوا الاهتداء الى الطريق فى الظلام . فاذا ما طلع الصباح استطاع الرومان ان يقطعوا الطريق عليه ..

ولم يبق أمام هاسدروبال غير القتال . فدارت معركة ميتوراس بين الفريقين . وتعتبر هذه المعركة من المعارك التى غيرت مجرى التاريخ .. فهى اخر مرة تجمع فيها شعوب ايطاليا صفوفها ضد الفرق القرطاجنية ..

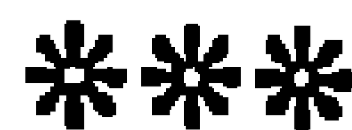
دفع هاسدروبال ما معه فى ليلة لسحق الرومان . وكانت الامدادات من الليجوريين والغال تعبر النهر . ولكنها لم تصل الى هاسدروبال فى الوقت المناسب .

وظلت نتيجة المعركة معلقة فى كفة الميزان ساعات طويلة الى ان انقض نيرو ومعه ٧٠٠٠ جندى على الغال الذين رفضوا عبور الخدود لمهاجمته . وبعد ان ترك نيرو ١٠٠٠٠

فارس من فرسانه للاشتباك مع الغال ، زحف بالباقين الى ميدان المعركة الرئيسي ..

واختار نيرو مؤخرة جيش هاسدروبال وهاجمها . وحينما حمى وطيس القتال وبدا جيش هاسدروبال يتفكك اندفع هاسدروبال بنفسه بين رجاله ليشحذ هممهم ولكنه ما لبث ان سقط صريعا .. وهكذا فقد القرطاجنيون قائدهم . فاستطاع الرومان ان ينكلوا بهم .

وفي تلك الليلة زحف نيرو بقواته الى الجنوب . وبعدستة ايام من زحف سريع لا هوادة فيه . قطع الجيش خلالها ٢١٠ ميلا — عاد نيرو بجيشه الى معسكره في اودينوس .



حينما عاد نيرو الى معسكره على الاودينوس ، أصدرامرا بالقاء راس هاسدروبال « وكان قد جاء بها معه » امام نقط حراسة العدو . وأن يمرالاسرى الافريقيون المكبلون بالسلاسل أمام انظار العدو . ثم اطلق سراح اثنين من الاسرى واوفدهما الى هانيبال ليحدثاه بما جرى

وعلم شعب روما أن هانيبال ما كاد يتلقى راس اخيه حتى ترك خطوطه على أودينوس مباشرة وبعد أن اخذ اللوسانيين معه أخلى خليج تارنتو حتى ميناء بونتم وانسحب الى تلال بردتي . وهناك عند طرف ايطاليا بقي في الانتظار .

ولم يقترح احد مهاجمته . لان قواد الرومان كانوا يعلمون أن كل ما حول هانيبال أخذ في الانهيار .

**نهاية مملكة بارسا !**

لاول مرة منذ غادر هانيبال قرطاجنة الجديدة . اى منذ اثنى عشر عاما . فقد قدرته على المباداة في الحرب العظمى.

وليس من شك في انه دهش كثيرا لان اعداءه لم يتحركوا ضده برغم قواتهم الضخمة الموجودة في ايطاليا .

وكان هانيبال لا يزال يحتفظ — وهو في الطرف الجنوبي من ايطاليا — ببعض الموانىء الصغيرة في لوكري وكردتون بالقرب من معبد لاسينيان الجميل . وكان يملك ما يكفي جيشه من طعام وفضة

وطوال العام التالي كان هانيبال يتلقى معلومات متقطعة عن تطورات الموقف . وقد زادت هذه المعلومات من قلقه ، اذ علم أن المحاصيل بدأت تتدفق على روما وأن المجاعة التي كانت تتهدد أهلها قد انتهت ..

وعلم أيضا ان فيليب ملك مقدونيا ابرم صلحا مع حلفاء روما وبذلك انتهى تحالف قرطاجنة مع سيراكيوز ومقدونيا .

وجاءت في اعقاب ذلك انباء فاجعة هزيمة القرطاجنيين في اسبانيا .. فقد اشتبك ماجو والقواد القرطاجنيون بجيوشهم في معركة حامية عند اليبا مع القائد الروماني الشاب سبيو الذي نقل خطوطه اثناء المعركة واستطاع سحق جناح جيش قرطاجنة ثم التقى بفلول الجيوش في اتجاه المحيط . وهكذا لم يتبق في أيدي القرطاجنيين غير قادش . وكان هانيبال يعلم ان اهلها لن يشدوا أزر القرطاجنيين في الملمات

ثم جاءته أنباء أخرى سيئة .. لقد فتحت قادش ابوابها للقائد الروماني الشاب ..

ولكن أيبريا لم تستسلم للرومان وراحت تقاتلهم قتال المستميت . ففي اليرجي دافعت النساء والاطفال بجانب الرجال . بينما احرق الرومان مدينة أستابا باهلها . اما كاستولو . وهي مسقط رأس زوجة هانيبال ، فاستسلمت للرومان بعد ان سمعت بوحشيتهم وفظاعتهم

وادرك هانيبال ان سبيو استطاع ان يصبح سيد اسبانيا

المطاع ، وان حكم اسرة بارسا هناك قد زال بعد اكثر قليلا من ثلاثين عاما .

ولكن ماجو لم يسلم بالهزيمة ، فقد عبا ۲۰۰۰ من أتباعه وركب الجميع عددا من السفن ودخلوا المضيق وحاولوا القيام بهجوم مباغت على قرطاجنة الجديدة من ناحية البحر فلما فشل الهجوم ابحر ماجو الى جزر باين لتجنيد جيش جديد طبقا للاتفاق الذى تم بينه وبين هاسدروبال .. ومن كروتون بعث هانيبال برسالة الى قرطاجنة يستحث ماجو فيها على النزول عند خليج ليجوريا ورئاسة المقاومة هناك حتى يمكن الاحتفاظ بخط البوضد الفرق الرومانية

ونزل ماجو فى ميناء جنوه ، ثم اختفى بين التلال .. وهكذا كان الاخوان بعيدين عن بعضهما . فماجو اسفل الالب وهانيبال فى طرف ايطاليا ..

وعندما بدا العام الثالث عشر من اعوام الحرب . بدا الاعياء يستولى على الرومان . فقرروا الاستراحة واصلاح ما فسد من شئونهم .. اما سبيو النشط فقرر الاستمرار فى الحرب ..

**مادبة سايفاكس :**

لم تبدا معركة زاما الكبرى التى التقى سبيو فيما بهانيبال فى يوم من أيام ربيع عام ٢٠٢ ؛ اذ الواقع انهـا بدات ؛ فى عقل سبيو قبل ذلك بعدة سنوات . وليس من شك فى ان ماحققه سبيو فى الفترة التى سبقت هذه المعركة كان تمهيدا لما حدث فى وادى زاما

ففى اوائل شهر مايو ٢٠٦ ــ بعد موقعة اليبابفترة قصيرة ــ جازف سبيو بالقيام باول محاولة للعبور الى أفريقيا . أما ما حدث له حينذاك فمما لا يكاد يصدقه العقل

فعلى اثر انتصاره فى معركة اليبا بعث سيبو الى مجاس

شيوخ روما باسلاب وغنائم هائلة . وقال إنه قررعبور المضيق لنقل الحرب الى افريقيا ذاتها حتى يرغم هانيبال على الرحيل عن ايطاليا والدفاع عن قرطاجنة نفسها . وكانت هذه الفكرة قد ساورت ابوه حتى لقد بدا مشاورات مع سايفاكس ملك نوميديا الذى كان يزود هانيبال بالفرسان المشهورين . وكان سبيو الاكبر يعتزم تحويل اسبانيا الى قاعدة للحملة الافريقية مثلما فعل هانيبال قبل زحفه الى روما .

وعبر سبيو البحر . واستقبله سايفاكس بنفسه على الشاطىء عند ميناء سيجا وفى قصر سايفاكس . فقد التقى سبيو هناك بضيف اخر قرطاجنى اسمه هاسدروبال ابن جيسجو وهو شاب فى مقتبل العمر كان شريكا فى القيادة مع ماجو بن هاملكار فى اليبال !

واقترح سايفاكس اقامة وليمة تكريما للاتفاق . وابدى غاية سروره لان الغريمين اجتمعا تحت سقفه ..

ولم يكن من شك ان سايفاكس كان فى مركز حرج . فهو بحسب الوضع الذى كان قائما كان حليفا وصديقا لقرطاجنة وفى الوقت ذاته فانه كان يرهب الرومان بعد ان سمع عن قوتهم الشيء الكثير ..

ونظرا لان سايفاكس لم يكن راغبا فى الاشتراك فى الحرب فقد اقترح ان ينتهز سبيو الفرصة المتاحة ليكسب صداقة هاسدروبال . فقال سبيو انه يسعده ان يفعل ذلك

فقال سايفاكس : اذن لماذا لا تتفقا على شروط الصلح ؟

وهنا قال سبيو ان ذلك امر مختلف . لأنه ضابط ينفذ اوامر مجلس الشيوخ والشعب الرومانى الذى يملك حق انهاء الحرب ..

وبعد رحيل سبيو قال هاسدروبال لضيفه : ان هذا الرجل اخطر عند الكلام منه فى ميدان القتال

وحمل سبيو منه وعدا من سايفاكس بان يصبح حليفا . بينما حمل هاسدروبال وعد سايفاكس بانه سيظل صديقا لقرطاجنة .

كان سبيو فى أشد الحاجة الى فرسان أفريقيا . ولهذا استمال اليه زعيم الفرسان الذى اشترك فى القضاء على ابيه وقاومه هو نفسه فى أليبا . وكان اسم هذا الزعيم ماسينيا وقد تلقى علومه فى قرطاجنة واخلص القرطاجنيين الى ان بدا نجمهم فى الافول

واستطاع سبيو أن يقوى رابطته بالشباب حينما اطلق سراح ابن عمه الذى وقع فى اسر الرومان .. كما استعان بتاثيره الشخصى حتى استطاع ان يخطب لب ماسينيسا ويجعله يقسم على مساعدته بمجرد نزول الجيش الرومانى فى أفريقيا ..

ولقد اتضح ان ماسينيسا حافظ على وعده . بينما لم يفكر سايفاكس فى المحافظة على الوعد الذى قطعه لسبيو . ولكن ماسينيسا لم يكن اكثر من مجرد لاجىء فى اسبانيا حينذاك . بينما كان سايفاكس يتمتع بالسلطان والهيبة . وكان الرجلان يكرهان أحدهما الاخر كراهية عميقة ..

***

**حملة افريقيا :**

استطاع سبيو أن يحصل على موافقة مجلس الشيوخ على غزو الساحل الافريقى بعد معارضة شديدة من جانب فابيوس .. ولكن المجلس لم يمد سبيو الا بقوات قليلة وسفن محدودة .

وراح سبيو يعد حملته على قرطاجنة برغم كل العوامل المعوقة التى كانت تعترض سبيله

واذ شعرت قرطاجنة بالخطة نشطت لتعبئة مواردها من الرجال توطئة لمقاومة الغزاة . واقامت نقط مراقبة متقاربة على طول الساحل . كما عززت استحكامات سورها . وراحت احواض بناء السفن الداخلية تعمل ليل نهار .

وظهرت النتائج سريعا . فسرعان ما نزل اسطول قوى الى البحر وكان عليه ٦٠٠٠ جندى قرطاجنى و ٨٠٠ نوميدى بجيادهم . و ٧ فيلة . واستطاع هذا الاسطول ان يراوغ الاسطول الرومانى الذى كان يراقب البحر ـ مثلما فعل اسطول ماجو وانزل حمولته فى جنوه حيث نقل قائده تعليمات قرطاجنة لماجو وتقضى بان يبذل قصارى جهده للانضمام الى هانيبال .

وشعر سبيو بالقلق حينما بلغه ان هانيبال نفض الخمول عنه . وترك ملاذه . وزحف الى لوكرى

وجمع سبيو كل ما استطاعه من سفن وجنود والات ورحل الى لوكرى . وكانت تبعد مسافة قصيرة عن ساحل صقلية . ولكنها كانت خارج نطاق سلطته

كانت لوكرى احدى الميناثين الكبيرين الباقيين . فى يد هانيبال فى براتيوم . وكانت قوة رومانية صغيرة قد استطاعت دخول المدينة باستخدام الخدع الرومانية . ونظرا لان المدينة كانت محصورة بين مرتفعين عليهما قلعتان للدفاع . فقد استطاعت القوات الرومانية المهاجمة ان تستولى على القلعة الجنوبية . فانسحبت الحامية القرطاجنية الى المرتفع المقابل

وبينما كان هانيبال مقبلا كالبرق من الشمال ؛ بعث الى الحامية القرطاجنية يامرها بالخروج للهجوم فى الليلة التى يهجم هو فيها على القلعة التى يحتلها الرومان

وفى ذلك اليوم وصلت سفن سبيو الى الميناء ونزل جنوده الى الشوارع بين المرتفعين . وذهب كشافته الى الطريق

الشمالى . فرأوا فرسانا قرطاجنيين مقبلين . وفى المساء وصل هانيبال الى الاسوار وعندما وصل وجد اسطول الرومان فى الميناء وقوة رومانية كبيرة فى المدينة . ونظرا لانه لم يكن قد احضر سلاام معه . فقدسحب الحامية القرطاجنية من انقلعة وكر عائدا من حيث اتى ..

وكان لهذا النصر السامى أثرة فى أذكاء روح الحماسة فى نفوس الرومان ..

## الابحار الى افريقيا :

اصدر سبيو أمره للاسطول بالابحار . الا انه قبل رحيله مباشرة تلقى نبا كان بمثابة لطمة قاسية . ولكنه اخفاه عن جنوده . فقد نقل اليه ان سايفاكس اعلن انه مرتبط بقرطاجنة وتلقى سبيو رسالة شخصية تقول له : لا تغز أفريقيا ..

وبدا الرحيل .. وعند الفجر صعد سبيو على ظهر سفينة القيادة . وظل يتابع اسطوله المؤلف من ٤٠٠ سفينة نقل و٣٠٫٠٠٠ جندى بما فيهم ملاحو السفن . النظر وهى تخرج الى عرض البحر .

ومر اسبوعان قبل ان تاتى سفينة رسل من افريقيا لتعلن ان الجيش هبط الى البر بسلام . وانه استولى على احدى المدن واخذ منها ٨٠٠٠ اسير وغنائم عظيمة .. واحضرت السفينة معها عددا من الاسرى ونفائس لتعرضها كدليل ولكن الامور لم تسر على هذا النحو الحسن ..

## اسوا ساعات سبيو :

صحت افريقيا فجاة على الخطر . وهبت لتدافع عن نفسها ضد الغازى

وهكذا تجمعت قوات جرارة لمقاومة سبيو الذى كان قد نزل بجيشه بالقرب من اتيكا . وكان يرجو أن ينتزع نصرا سريعا فى اتيكا لان ذلك يمكنه من الحصول على قاعده منيعة تطل على البحر وعلى بعد مسيرة يوم واحد من سور قرطاجنة العظيم . ولكن اتيكا اختارت المقاومة ولما لم يستطع سبيو اقتحامها فقد اضطر الى محاصرتها

وتبين للقائد الرومانى ان مدن الساحل معادية له .. ومما زاد الطين بلة ان سايفاكس عبا قواته لمساعدة هاسدروبال بن جيسجو تحت تاثير سوبهديسبا ابنة هاسدروبال وكانت فتاة رائعة الجمال قبل ابوها أن يزوجها من سايفاكس مقابل تاييده لقرطاجنة بكل ما يملك من قوة

واقبل ماسينيال الى خطوط الحصار وافضى لسبيو بهذه المعلومات . ولم يستطع سبيو ان يحصل على اكثر من مائتى فارس من عشرات الالوف التى كان يطمع فيها

وبدأ سبيو يعانى الاهوال والمتاعب .. ثم اقبل الشتاء واتيكا لا تزال تقاوم باصرار . بينما احتشد جيش قرطاجنى - نوميدى فى جنوب الوادى . فاضطر سبيو الى سحب معسكره الى منطقة صحراوية شرق اتيكا . وهناك عهد الى ملاحى الاسطول بالعمل فى خطوط الحصار التى راى المحافظة عليها .

واضطرته عواصف الشتاء العاتية الى الامتناع عن كل اتصال بالسواحل الشمالية . كما حمته من التعرض لهجوم اسطول قرطاجنة البحرى الذى اشتد ساعده .. وكان هذا الاسطول هو اعظم خطر يتهدد سبيو على الساحل الافريقى

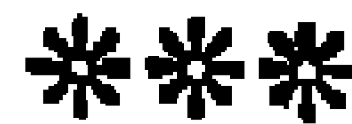
ومن عجب إن شتاء عام ٢٠٤ - ٢٠٣ وجد سيدا الحرب هانيبال وسبيو ، منعزلين كل منهما فى شبه جزيرة . وكلاهما على ساحل عدوه . وكانت صلة كل منهما شبه

معدومة بالاحداث التى تجرى فى الاماكن الاخرى . الا ان هانيبال كان فى موقف افضل لمعرفة حقيقة الموقف فى البحر الابيض بصفة عامة ..

كان هانيبال يعلم ان لدى روما ٢٠ فرقة حربية و١٦٠ سفينة حربية بخلاف حملة افريقيا .. ومن قادش على المحيط الخارجى الى ساحل دلماشيا انتشرت معسكرات الفرق الرومانية ، وبداخل هذه الحلقة الفولاذية تقع الجزر من البليار الى صقلية

وفيما وراء نهر ابرو كانت مقاومة الاسبانيين الاخيرة للرومان توشك على الانهيار اما ماجو فلم يستطع ان يتجاوز نهر بو . ولاول مرة استطاع الرومان ان يحصلوا على راس جسر فى افريقيا . ومع ان قرطاجنة كانت لا تزال امنة . الا ان الرومان اصبحوا سادة الامبراطورية البحرية وهى الامبراطورية التى كانت اسرة بارسا تهفو اليها ..

وهكذا اصبح قلق هانيبال مركزا فى قرطاجنة نفسها ..



عندما جاء الربيع خرج سبيو من راس الجسر عند كاسترا كورنيليا قبل ان ينتهى موسم العواصف وقبل ان يتمكن اسطول قرطاجنة من الخروج الى البحر

وخلال فصل الشتاء قام سبيو بخدعة غريبة .. راح يجرى محادثات صلح مع سايفاكس وهاسدروبال .. وطالت المباحثات التى كانت تجرى بواسطة الرسل . وكان السؤال الذى دارت المباحثات حوله هو : الا يمكن ان تنسحب الجيوش جميعا . وان يعود الموقف الى حالة راهنة ! وكان رسل سبيو من الضباط المتنكرين ولهذا اتيحت لهم فرصة

دراسة معسكري العدو أثناء هذه المباحثات التي طالت كثيرا دون الوصول الى قرار .. وأخيرا اعلن سبيو انه لا يملك السلطة التي تتيح له الموافقة على ما طلبه سايفاكس ..

وبينما كان النوميدي الكهل يفكر في طول تردد الرومان ذات ليلة . اندلعت النار في معسكره ومعسكر هاسدروبال في وقت واحد . وعندما استيقظ النوميديون والقرطاجنيون نزعون وحاولوا اطفاء النار وجدوا انفسهم يواجهون حراب فرق سبيو . ثم اندفع فرسان ماسينيسا بداخل المعسكرات المضطربة . ولكن سايفاكس وهاسدروبال استطاعا الافلات بجلدهم . بينما انقذ الرومان كثيرا من مخازن المؤن والغنائم والجياد من الحريق .

وهكذا استطاع سبيو ولاليوس بانتهاك حرمة الهدنة ان يقصوا الافريقيين عن خط حصارهم .

وراح سبيو يستغل هذه الميزات بدون تردد أو هوادة . . فقد جعل احتراق المعسكرات القرطاجنيين يتراجعون الى مدينتهم ، بينما هرب النوميديون الى سرتامقر حكم سايفاكس في الغرب . ثم مرت ثلاثة اسابيع قبل أن يتمكن الزعماء من تقوية وتجميع اتباعهما في الارض المشتركة التي يطلق عليها السهول الكبرى في الجنوب . وراحت زوجة سايفاكس تحثه على بذل جهد أكبر . وقد ساعده على ذلك مجيء ٤٠٠٠ كلتي قدموا من الساحل الغربي لتاييده . وكانوا من الجنود القدامى المحنكين . أما كيف ولماذا جاءوا الى قرطاجنة فامر لا يزال غامضا اللهم الا اذا كانوا قد عبروا البحر الى افريقيا للانضمام الى القوات المقاتلة بعد ان انتهت الحرب في اسبانيا .

وبدا الاشتباك مع الكلت سريعا ؛ فقد قاد سبيو احسن فرقتي مشاة لديه مع عدد ضخم من الفرسان وبعد خمسة

ايام من السير الحثيث وصل سبيو الى مركز تعبئة الحلفاء فى السهول الكبرى

ودارت رحى معركة اشترك فيها حوالى ١٦٠٠٠ رومانى ضد ٢٠٠٠٠ من الحلفاء .. ودارت الدائرة على الحلفاء اذ سحق لايلوسي وماسينيسا جناحى جيش قرطاجنة . بينما شكل المشاة الرومان انفسهم على هيئة مروحة . ثم اطبقوا على الكلت . مثلما احدث الرومان فى كاناى ؛ ولكن الكلت لم يحاولوا الفرار . وفضلوا ان يموتوا وسيوفهم فى ايديهم . ويقال ان سبيو اضطر الى الاستعانة بجميع فرقه قبل ان يتمكن من القضاء عليهم ..

وكان سبيو يتمتع بميزة اخرى على عدوه : وتلك ان مساعديه لاليوس وماسينيسا كانا من اكفا القواد . وقد عهد الى ثانيهما بمطاردة الهاربين نحو نوميديا فى الغرب، ثم ارسل لاليوس فى اثره لمساعدته ومراقبته فى وقت واحد .. اما هو فترك خطوط الحصار فى اتيكا ، وزحف الى تونس جنوب قرطاجنة . ولم يكن بتونس اكثر من محاجر وتجار . ولكن خليجها كان ملاذا امينا لاسطول قرطاجنة ..

وفى تونس ، رأى سبيو اكثر ما كان يخشاه .. كان اسطول العدو يخرج من موانيه ، فانطلق سبيو بجواده ومعه حرس صغير - لم تتبعه الفرق المقاتلة - الى كاسترا كورنليا . واستطاع سبيو أن يصل الى هناك فى الوقت المناسب ، اذ ما كاد يصل الى كاسترا كورنيليا حتى تحول هو وملاحيه وجميع من استطاع ان يجمعهم من الجنود الى مهندسين . ولما كانت السفن المقاتلة القليلة التى لديه عاجزة عن الخروج الى عرض البحر ، فقد عمد الى اقامة حاجز حولها من سفن النقل وصعد الجنود الى هذه السفن ، واستعدوا للدفاع عنها ..

وأخطأ القائد القرطاجنى ، فقد بقى فى عرض البحر فى انتظار خروج أعدائه اليه ، ولكنهم لم يخرجوا طبعا ؛ وعندما تحركت القطع البحرية القرطاجنية بداخل شاطىء اتيكا فى اليوم التالى ، وجد القرطاجنيون انفسهم امام جدار من سفن النقل المشحونة بالجنود ، ولكن القرطاجنيين كانوا ملاحين مهرة ؛ ولهذا انجلت المعركة عن اغراق ٦٠ سفينة رومانيه .. ومن ثم اضطر سبيو الى ابقاء فترة من الوقت للاحظة كاسترا كورنيليا ..

وفى تلك الاثناء كان ماسينيسا يكتسح ارض اجداده بسرعة الاعصار ليحطم المقاومة التى كانت تتشكل حول عدوه الاقطاعى سايفاكس وذلك لخلع سايفاكس نفسه واسره . وعندما اشتدت المقاومة ظهر لاييوس على المسرح وهكذا قضى على جيش سايفاكس وأخذ هو اسيرا

وسقطت سيرتا ..

وعندما عاد الرجال الثلاثة الى اتيكا قرر سبيو ان يرسل سايفاكس الى روما مكبلا بالحديد

وهكذا اخضع الرومان الشاطىء المعادى .. ومنح سبيو سنده ماسينيسا تاجا من الذهب اعترافا بفضله . ثم نصبه ملكا على قومه ..

**قرطاجنة تستدعى ابنها :**

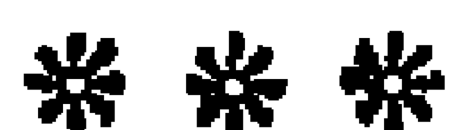
بعد كارثة السهول الكبرى شعرت قرطاجنة بالخطر المحدق بها — وكان مجلس بايرسا منقسما على نفسه حتى ذلك الحين بسبب تعارض الاراء . فثم فريق قوى ينادى بالسلم وابرام الصلح مع الرومان ، بينما نادى فريق ثانى بعودة هانيبال ؛ اما الفريق الثالث فقال بضرورة طرد سبيو من رأس جسره .. وراحت الجماهير تنادى فى الشوارع باستدعاء هانيبال

وفيمــا بين منتصف شهر مارس ونهــاية شهر يونيو ، راحت الفرق الرومانية تكتسح طرق المناطق الداخلية بينما اختفى جيش قرطاجنة فى السـهول انكبرى .. ومن سايرتا الى نهاية نوميديا كانت صلة المدينة بالقارة مقطوعة ؛ وكان اللاجئون يتـــدفقون حاملين أمتعتهم ؛ ولكنهم لا يحملون طعاما ؛ كما ان محاصيل حوض نهر باجراداس الحيوية كانت فى متناول يد العدو ؛ وبدأ الجوع يتفشى فى الشـوارع المكتظة. وهكذا بدا الموقف رهيبا حالك السواد ..

وعهد مجلس قرطاجنة الى هانو ــ وكان احــد رجال هانيبال القدامى ــ يتولى قيادة الدفاع عن قرطاجنة ؛ كما اوفد رسله الى ماجو اسفل جبال الالب والى هانيبال يامرهما بالعودة بجيشـهما الى قرطاجنة . ثم استبدل المجلس قائد الاسطول ببحار اعظم كفاية هو هاسدروبال اتنيا .. وتحت قيادة هذا الاميرال الجديد شن الاســـطول القرطـــاجنى هجوما ناجحا اسر فيه ٦٠ سفينة نقل رومانية اضيفت الى الاسطول القرطاجنى الذى ارسل الى هانيبال ليعيده هو وجيشه الى قرطاجنة

أما على شـــاطىء ليجوريا فقد اعد ماجو الامين سفنه بنفسه ؛ فقد كان قائدا بحريا ماهرا أيضا .. على حين أن هانيبال لم يكن يملك غير عدد قليل من السفن الصغيرة فى ميناء كروتون ؛ فضلا عن انه لم يركب سفينة منذ سنوات طويلة ..

وكان ذلك فى شهر يوليو عام ٢٠٣ ؛ وكانت الريح رخاء .



فى شهر يوليو كان هانيبال فى الانتظار .. ولكن التـاريخ لم يكشف لنا عما حدث فيما بين هذا الشهر وشهر اكتوبر

الذي عبر هانيبال البحر فيه مع جيشـــه فى طريقه الى افريقيا .. ويبدو أن معركة شـبيهة بدنكرك دارت رحاها فى تلك الفترة وان كانت تفصـيلاتها مازالت مجهولة حتى الان .. ولو أن بعـض المؤرخين يقولون أن الرومان كانوا يتفاوضون مع القرطاجنيين فى أمر الهدنة حينذاك ؛ ولمـا كانت قوانين الرومان لا تجيز المفاوضة اثنـاء وجود جيش العدو فى الاراضى الايطالية فقد سمح لها نيبال وماجو بالرحيل .. من ايطاليا بجيشيهما

مهما يكن من الامر ؛ فقد قدر عدد الجيش الذى رافق هانبيال فى رحيله من ايطاليا بما يتراوح بين ١٢٫٠٠٠ و ١٥٫٠٠٠ جندي ؛ ويبدو أن هذا التقـــدير صحيح لانه لم يكن فى الامكان نقل عدد أكبر من هذا فى رحلة طويلة وبغير حراسة بحرية قوية .

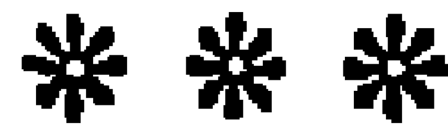
وواقع الامر ان اساطيل الرومان ؛ التى كان يتراوح عدد سفنها المقاتلة بين ١٤٠ و ١٦٠ سفينـة كانت ترسو فى أوستيا وسردينيا وصقلية ؛ وكانت مهمة الجزء الاكبر منها حمـاية القوافل الجديدة التى كانت ترسـل الى افريقيا حاملة المؤن والامدادات لسبيو .. ومع ذلك فقد اعترضت بعض هذه السفن القافلة التى نقلت جيش ماجو ..

وكان ماجو قد جرح فى معركة اخيرة دارت رحاها على نهر بو . ثم مات اثناء الرحلة البحرية . الا أن معظم قافلته استطاعت أن تصل الى قرطاجنة فى النهاية .

واستطاع هانيبال ان يصل بسلام الى تونس اى على بعد ٨٠ ميلا تقريبا جنوب جبل قرطـاجنة المقـدس .. وما كاد الجيش ينزل الى البر حتى زحف هانيبال به سريعا الى حضرموت خارج منطقة داوريات الرومان .

وهكذا وقف هانيبـال على الارض الافريقية مرة اخرى

بعد ٣٤ عاما .. كان اخواه قد قتلا ولهذا تركز فيه حقد روما بعد ان استطاع عبور البحر بسلام واصبح بين قومه وعشيرته ، ومعه جيش يتكون من رجال اشداء عركوا القتال واجادوا فنونه وحيله ..



كان وصول هانيبال الى افريقيا ضربة قاصمة أسبيو .. صحيح أنه كان يتوقع وصول هانيبال ولكنه كان يعتقد انه لن يستطيع الوصول بجيشه سالما بينما الاساطيل الرومانية الجبارة تروح وتجىء فى البحر كالجراد ..

وظلت اتيكا تتحدى سبيو فى ذلك الخريف ، كما انه فشل فى الاستيلاء على بيزرطه على الخليج الغربى . وفى الوقت ذاته كانت قرطاجنة المنيعة لا تزال تعزز استحكاماتها .. بينما استبقى مساعد سبيو الأقوى ، لاليوس ، فى روما بعد أن رافق سايفاكس الى هناك ، اما ماسينيسا فكان لايزال فى الغرب لاحضار الفرسان الذين كان سبيو فى مسيس الحاجة اليهم .

وهكذا تحرج مركز سبيو .. وادرك انه سيهلك لا محالة اذا لم يخف ماسينيسا لنجدته او ترسل روما قوات جديدة لشد ازره .

ثم جاء الشتاء فاستحالت بذلك عمليات النقل البحرى الكبرى . وظل سبيو معزولا بجيشه فى ركن على السواحل الافريقى كما حدث فى العام الماضى ، مع فارق واحد هو ان هانيبال كان معه فى هذا الركن

ولكن سبيو لم يكن قائدا ممتازا فحسب ، وانما كان أيضا عبقريا ملهما وسياسيا فذا ..

كان قد اتفق مع مجلس قرطاجنة فى الصيف الماضى على

عقد هدنة . لانه كان بحاجة الى اعادة تنظيم قواته ؛ وقبل المجلس عقد الهدنة لانه كان يريد كسب الوقت ريثما يصل هانيبال من ايطاليا . وكان لقاء سبيو مع مندوبى المجس قريبا ؛ فقد تامل سبيو المندوبين طويلا وأفضى اليهم بشروطه للصلح .. وكانت كالتالى :

اعادة جبيع الاسرى واللاجئين والفارين الى روما .

سحب جيوش قرطاجنة من ايطاليا

تخلى قرطاجنة عن سردينيا وكورسيكا وصقلية ؛ وعدم التدخل فى اسبانيا .. وتسليم السفن الحربية مع احتفاظ قرطاجنة بعشرين سفينة فقط ؛ ودفع تعويض قدره ٥٠٠٠ طالن من الفضة « اى حوالى اربعة ملايين جنيهات » .

وكان هناك شرط ينص على أن تقوم قرطاجنة بتقديم الطعام للقوات الرومانية الموجودة فى افريقيا أثناء الهدنة ؛ والاعتراف بماسينيسا ملكا على بلاده

وبرغم ان سبيو قدم هذه الشروط لوفد قرطاجنة بدون الرجوع الى مجلس الشيوخ فى روما الا انه يبدو انه كان قد احسن التكهن بالحوادث التى كان المستقبل سيتمخض عنها ؛ وخلاصتها ان قرطاجنة لن تدمر ؛ وأن روما ستصبح امبراطورة البحار ..

وحدد سبيو الوفد القرطاجنى ثلاثة ايام للبت فى شروطه . ولما كانت أسرة بايرسا هى صاحبة الكلمة فى المجلس ؛ وكان أقطابها يوافقون على ابرام الصلح ؛ فقد وافق المجلس على ايفاد مندوبين الى روما لابرام الصلح ..

وكان من الطبيعى أن يشعر مجلس شيوخ روما بالحيرة عند وصول مندوبى قرطاجنة وشروط الصلح التى وضعها سبيو القائد المظفر اللامع .

ودارت مناقشات حامية فى المجلس ؛ وكان الاتجاه البارز هو رفض الصلح ..

وفى تلك الاثناء عرف نبا اختفاء هانيبال وماجو وقوالهما من ايطاليا . فاثار ذلك ريبة مجلس شيوخ روما ؛ وبدات المناقشات والجدل من جديد ..

واضطر المجلس الى احالة الموضوع على المجالس الشعبية؛ ولما كانت هذه المجالس تؤيد سبيو بكل قوتها فقد طالبت بتقديم كل عون ومساعدة له ..

وارسلت روما اساطيل وجنود ومؤن جديدة الى سبيو فى أفريقيا ..

وحدث ان هبت عاصفة جعلت السفن الرومانية المحملة بالمؤن تجنح نحو قرطاجنة ؛ فرآها القرطاجنيون الجائعون؛ فراحوا يطالبون مجاسهم بارسال الاسطول للاستيلاء على هذه السفن .. وقد كان ..

والواقع ان روحا جديدة دبت فى القرطاجنيين بعد ان علموا بوصول هانيبال وجيشه

وفى كاسترا كورينليا بذل سبيو قصارى جهده ليمد الهدنة اياما قليلة أخرى

وظل الموقف مائعا الى ان جاء الربيع .. فارسل سبيو الى روما يطالبها بسرعة ارسال قوات جديدة ؛ وبعث يستحث ماسينيسا على العودة . وبالاخص لانه علم ان أبناء سايفاكس يحشدون الفرسان توطئة للانضمام الى هانيبال ؛ وان الجيوش القرطاجنية قد اتحدت .

وفى أحد أيام الصيف الاولى ؛ قرر سبيو ألا ينتظر أكثر من ذلك ..

زحف بالجزء الاكبر من جيشه على نهر باجرداس بعيدا عن قاعدته فى اتيكا وعن تاييد الاسطول فى البحر .. وفى كل يوم كان يبعث بالرسل غربا ليحثوا ماسينيسا على العودة بالفرسان المطلوبين ..

واستمر سبيو يزحف جنوبا بغرب متتبعا النهر بقدر الامكان ؛ وكان يحرق القرى فى زحفه ؛ ويدمر المحاصيل ؛ ويأسر السكان ..

وادت هذه التصرفات الوحشية الى استغاثة القرى الاخرى بهانيبال .

وكان هانيبال يعلم ان سبيو لا يملك فرسانا نوميديين حتى الان .. ولكنه هو نفسه ـ اى هانيبال ـ لم يكن مستعدا حينذاك لملاقاة سبيو ..

وبرغم هذا خف هانيبال لتلبية النداء بلا ابطاء

وزحف طابور جيشه الطويل غربا وخلفه ٨٠ فيلا

كان هانيبال يزحف بسرعة تقطع الطريق على سبيو ومفاجاته قبل أن ينضم ماسينيسا اليه .. وكان عدد رجال جيشه ٣٧٠٠٠ رجل ولكنهم لم يكونوا جيشا قوى التماسك ..

ومن سخرية القدر ان هانيبال كان يتقدم فى بلاد لم تسبق له رؤيتها منذ كان فى التاسعة من عمره ، أما الرومان فكانوا يزحفون فى منطقة سبق لهم ان عرفوها .

**معركة زاما :**

وهنا لا بد لنا من وقفه قصيرة لنتامل الخصمين ..

كان هانيبال سيد الاستراتيجية بلا منازع، يمتاز بخطورته الشديدة فوق الارض التى يختارها ؛ كما امتاز بما لم يستطعه غيره وهو قدرته التى لا تبارى على توجيه اشد ضرباته الى اضعف نقطة فى جيش العدو . والعجيب فى الامر أن احدا لم يكن ليستطيع ان يتكهن بتكتيك هانيبال اذا استطاع ان يختار مكان المعركة

أما سبيو فامتاز بالحذر فى الاستعداد للقتال ، والعنف فى العمل . ولكنه كان يعتمد على تكتيك واحد ؛ وهو تحريك

قلب الجيش ابان المعركة وتشـــكيله على هيئة مروحة للاحاطة بالعدو

كان الوادى الجنوبى لايزال مخضرا بعد سقوط امطار الشتاء السابق ، ولعل سبيو عرف باقتراب هانيبـال لاول مرة من الجواسيس القرطاجنيين الذين قبض الرومان عليهم بالقرب من قرية تدعى ناراجارا . ومن العجيب ان سبيو جعل هؤلاء الجواسيس يروون كل شيء ثم اطلق سراحهم ليعودوا الى المعسكر القرطاجنى بالقرب من قرية تدعى زاما

وما كاد سبيو يعرف ان هانيبـال يعمل على قطع خط زحفه حتى استدار بطوابيره الى الشرق أى فى اتجاه العدو الى أن عبر نهرا صغيرا لم تكن حرارة شمس الصيف قد جففته بعد ، وهناك دهش سبيو حين جاءه رسول قرطاجنى قال له ان هانيبال يريد ان يتحدث اليه شخصيا فى هدنة مؤقته بين الخطوط ..

ولم يكن سبيو يعرف حينذاك اين يوجد جيش قرطاجنة لكنه كان يعلم ان جيشه هو يسير فى سهل مكشوف بعيدا جدا عن قاعدته محروما تماما من الفرسان

وبينما كان سبيو يفكر فى الامر ، ظهرت طلائع ماسينيسا على الافق ..

وكان مع ماسينيسا ٦٠٠٠ فارس و ٤٠٠٠ من المشاه .

وادرك سبيو انه اصبح فى مركز ممتاز .. فاطلق سراح الرسول بعد أن ابلغه انه على استعداد لمقابلة هانيبال ..

ومن معسكر القرطاجنيين فوق مرتفع قليل الانحدار على الجانب الاخر من الوادى ، خرج هانيبال ممتطيا صهوة جواده ويحيط به حرس من الخيـالة . . ولكنه سرعان ما ترجل عن جواده وسار لملاقاة سبيو ومعه مترجم برغم انه

كان يفهم اللاتينية ويجيد التحدث بها .. الا انه يبدو ان القائدين رايا الاستعانة بالمترجمين حتى تتاح لهما فرصة التفكير فى الاجابة أثناء قيام المترجمين بعملية الترجمة ..

وعندما التقيا ، لزم كلاهما الصمت .. كان هانيبال اكبر سنا ؛ واطول قامة من سبيو وقد غطى عينه الضريرة بعصابة ولهذا ادار راسه قليلا حتى يستطيع اجادة الرؤية .

ووقف سبيو حاسر الراس ؛ يحمل خوذته على ذراعه ؛ وهو منتصب القامة ..

وبعد فترة طويلة تكلم هانيبال ..

وقال المترجم لسبيو : لقد اصبت نجاحا كبيرا ايها القنصل الروماني .. ولكنك كنت سعيد الحظ ايضا

وانتظر سبيو ..

ومضى هانيبال يقول : هل خطر ببالك ان روما ستفيد شيئا من الاستمرار فى هذه الحرب ؟ اعنى هل ستفيد أكثر مما حصلت عليه حتى الان ؟ الا تظن انك اذا هزمت هنا فسيضيع جيشك ؟

وبعد ان فكر هانيبال لحظة استطرد ا ما كنت لاقترح ابرام الصلح لو لا اعتقادى انه يفيد الطرفين

وانتظر سبيو .. كان من الواضح ان هانيبال سمع عن شروط سبيو لابرام الصلح . وعندما تكلم سال هانيبال عما يريد ان يعرضه غير الشروط الرومانية

فقال هانيبال ان قرطاجنة ستتخلى عن جميع جزر البحر بما فيها الجزر الصغيرة الواقعة بين ايطاليا وافريقيا ( كمجموعة جزر مالطة ) واسبانيا . ولكنه لم يشر الى

تسليم السفن الحربية او تسليم الاسرى والفارين الذين انضموا الى جيش قرطاجنة .

واجاب سبيو انه لا يستطيع ان يقبل اية شروط غير تلك التي اقرتها حكومة بلاده .

وهنا حيا الرجلان احدهما الآخر وافترقا . .

لم يكن من سبيل لتفاهم القائدين بعد أن أبدى كل منهما تمسكا بموقفه .

ولم يبق امامهما غير استئناف القتال الى أن يقضى احدهما على الآخر فى النهاية

وفى تلك الليلة أعد سبيو جيشه للقتال . . وضع ماسينيسا وفرسانه فى احد جناحى الجيش ، ولاليوس وفرسانه فى الجناح الآخر ؛ وتولى هو قيادة القلب . . مع النظر بعين الاعتبار للفيلة

واما هانيبال فراح ينتقل من وحدة الى وحدة ؛ ويتحدث الى رجاله . ثم أصدر تعليماته للضباط ؛ ولعل هانو وحده؛ ذلك المقاتل القديم ؛ هو الذى علم ما معنى هذه التعليمات،

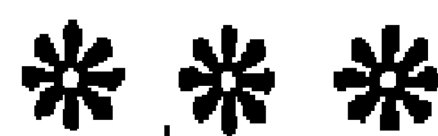
ولم ينم هانيبال فى تلك الليلة لان أول عنصر من عناصر هجومه بدأ يستعد للخروج الى المعركة مع ساعات الليل الاخيرة .

ووقف هانيبال فوق ربوة عالية ؛وراح يراقب الفيلة وهى تتحرك مع طلائع الجيش . . ثم تحركت بعدها قوات ماجو من الليجوريين والغال والمغاربة وبعض الاسبانيين

ورأى الرسل الذين كانوا يقفون مع هانيبال فوق الربوة ما كان يحدث فى ضوء الفجر الباهت وكانت نظرة واحدة تكفى للحكم بان هذا الجيش لم يكن يشكل جيش هانيبال المتناسق المعروف الذى دوخ الجيوش الرومانية فى عقر دارها . .

كان من الواضــح ان جيش قرطــاجنة يتكون من ثلاث وحدات منفصلة . ستقاتل كل وحـــدة منها مستقلة عن الاخرين بناء على أوامر ضباطها .. وامامها جميعا تقدمت الفيلة القوية

واحتفظ هانيبال بالتشكيل الاخير ، وهو جيشــــه من البروتيوم . ولكنه ما لبث ان انضم اليه بنفســـه ليتولى قيادته نظرا لان اعتماده كله كان مركزا فى هذا التشكيل .. وكان كل أمله أن يظل امر هذا التشكيل خافيا على الرومان حتى يستطيع ان يستخدمه فى لحظات المعركة الحرجة .



وهكذا شهد ميدان زاما ثلاث معــارك منفصلة بدلا من معركة واحدة

فبالرغم من تحرك هانيبال فى وقت مبكــر ؛ فان الرومان كانوا بدورهم قد تحركوا نحوه فى خطى بطيئة وقدتماسكت وحداتهم كقطع الالة الميكانيكية التى تكمل احداها الاخرى

وتقدم خط المشاة فى تشكيل الصفوف الثلاثة المعتاد .. المقدمة ، ثم حملة الرماح ؛ ثم المؤخرة ..

ثم تقــــدمت الكتل المسلحة الى منتصف الوادى حيث تقابل بالامس هانيبال وسبيو ليتحدثا

وفجاة ، انطلقت الابواق والطبول الرومانية فى لحظة واحدة فاثارت الفزع بين الفيـــلة التى كانت تتقـــدم صفوف القرطاجنيين .

واندفعت الفيلة نحو صفوف الرومان . ولكن سبيو كان قد ترك فراغا بين هذه الصفوف فاقتحمته الفيلة وعنــدئذ انهالت الصواريخ عليها ، فاضطرت الى العودة الى صفوف القرطاجنيين وقد تملكها الهياج الشديد .. بينما استمر بعضها يركض حتى ابتعد تماما عن ميدان المعركة .

وعندئذ أصدر سبيو أمره لجناحي جيشه الراكبين بالتقدم وكان سلاح فرسان هانيبال قليلا فلم يستطع وقف زحف فرسان ماسينيسا ولاليوس المدربين .. واشتد ضغط فرسان روما حتى سحق فرسان قرطاجنة ، وسرعان ما انفصل الفرسان عن الجيشين ؛ فريق هارب ؛ والآخر مطارد له حتى غاب الفريقان عن الانظار

وفى تلك الاثناء كان الليجوريون والغال قد التحموا فى القتال مع الخط الاول فى جيش الرومان وقد تشبث رجال ماجو بموقفهم فى عناد أضطر الرومان الى أنكف عن التقدم بعض الوقت ، ولكنهم ما لبثوا ان استأنفوا الزحف بيد ان التشكيل القرطاجنى الثانى لم يتقدم لشد أزر الليجوريين والغال الذين تملكهم الاعياء وذلك طبقا لتعليمات هانيبال ؛ وعندما تراجع الاحياء من التشكيل الاول . الفوا القرطاجنيين يصوبون اسلحتهم اليهم . فاصيب الليجوريون والغال بالجنون واشتبكوا مع القرطاجنيين فى قتال وحشى

وفى نفس اللحظة تقدم الخط الرومانى الى جيش هانيبال الثانى .. أى الكتل القرطاجنية وكان هذا الجيش يتكون من مجندين قرطاجنيين جدد بقيادة هاو الكهل . وقد افزعهم تقهقر رجال ماجو .. وتقدم الرومان المسلحين بالسيوف والدروع ، وما لبث أن انضم حملة الرماح اليهم ؛ ودارت بين الفريقين رحى معركة رهيبة واستطاع القرطاجنيون أن يوقفوا تقدم الرومان المدربين .. وعندما كاد النهار أن ينتصف اضطر القرطاجنيون الى التراجع وقد أصيب جناحاهما بخسائر جسيمة . بينما غطيت الارض بجثث القتلى والجرحى ..

وخلف هؤلاء القتلى ، وقف جيش هانيبال الثالث .. الجنود الايطاليون القدامى ..

واخيرا وقف الليجوريون وجها لوجه امام الفرق الرومانية المنيدة

ولم يكن فى استطاعة سبيو ان يتراجع .. كان يقف على بعد ثلثمائة خطوة من المعركة ويراقب ما يحدث عن كثب .. ولاحظ سبيو ان هانيبال يبيت امرا .. ولم يكن فرسانه قد عادوا بعد من مطاردة فرسان هانيبال .. فانتظر سبيو ريثما التقطت قواته انفاسها وحصلت على الماء — ثم عاد يصدر اوامر سريعة . فانتقل حملة الرماح الى احد الجانبين وانتقل طابور المؤخرة الى الجانب الاخر ..

وبذلك طال الخط الرومانى حتى فاق تشكيل هانيبال واستانف الرومان التقدم ..

وانقض جناحا الخط الرومانى بعنف بالغ على جناحى هانيبال الضعيفين . وكانت مجازفة من سبيو ، الا ان النجدة هبطت عليه من السماء حينما عاد فرسانه فجاة بقيادة ماسينيسا ولاليوس وانقض فرسان الرومان على مؤخرة جيش هانيبال

ومع ذلك ظل القرطاجنيون يقاتلون بعنف ووحشية ذهبا مضرب الامثال ..

الا ان للطاقة البشرية حدودا فان القرطاجنيين لم يستطيعوا الصمود امام الرومان بغير تاييد من الفرسان

وهكذا انتصر سبيو فى كاناى اخرى .. ولكنه كان نصرا غالى الثمن ( فقد صرح سبيو فيما بعد بان هانيبال ، فعل كل ما يستطيع رجل واحد ان يفعله فى معركة زاما )

وترك هانيبال ميدان المعركة . وانطلق الى الشرق بلا توقف ، الى حضرموت التى تبعد ٩٠ ميلا ؛ وهناك وجد قوة فى انتظاره ومعها المؤن ؛ وهكذا جنب فراره مدينته مذلة تسليمه للعدو ..

كان يعلم انه خسر الحرب نهائيا بعد أن فقد الجيش الذى ظل يقوده من نصر الى نصر ستة عشر عاما وان أية محاولة للدفاع عن قرطاجنة نفسها بغير جيش معناها حصار المدينة وهلاك اهلها جوعا

ومن حضرموت، بعث هانيبال برسالة الى مدينة قرطاجنة قال فيها : « لقد خسرنا اكثر من معركة .. خسرنا الحرب ، فاقبلوا شروط الصلح المعروضة عليكم »

ومن روما جاءت جيوش جديدة وعلى راسها قناصل جدد ؛ ولكن سبيو كان قد حقق النصر النهائى ؛ ولم يكن يرغب فى حصار قرطاجنة لانه لم يكن راغبا فى تدميرها او فى استعباد شعبها ولهذا اكتفى بما حققه من نصر وعاد الى ايطاليا.

ولم تدخل روما على شروط الصلح السابقة غير تعديلات بسيطة أصر عليها مجلس الشيوخ .وتنحصر فى تسليم جميع سفن قرطاجنة الحربية ما عدا عشر فقط .. وتسليم جميع الفيلة ؛ وعدم الدخول فى اية حرب بافريقيا قبل الحصول سلفا على موافقة روما ودفع ١٠٫٠٠٠ طالن من الفضة خلال ٥٠ سنة ؛ وان تصبح قرطاجنة صديقة روما وحليفتها

وقبلت قرطاجنة هذه الشروط ..

واستخدم سبيو نفوذه للابقاء على حق المدينة الكبرى فى الحكم الذاتى ؛ وعدم الاضرار بالقرطاجنيين انفسهم ؛ او التدخل فى حياتهم المدنية ..

ولم يطلب الرومان من القرطاجنيين تسليم هانيبال

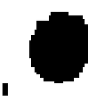
وفى مقابل ذلك طلب الرومان اعتراف قرطاجنة بماسينسا ملكا على النوميديين

وعندما عاد سبيو الى روما فى العام التالى ( ٢٠١ ) احضر معه ثروة قدرت باكثر من ١٢٣٫٠٠٠ جنيه من الفضة .. وتجمع الناس فى كل بقعة لتحيته تحية الغزاة الفاتحين

وبرغم ما اعتمل فى صدور حساد سبيو ؛ فقد اتخذ مجلس الشيوخ قرارا باطلاق لقب « المواطن » الاول على سبيو

# الفصل السابع

## المطاردة نحو الشرق



عندما دخل هانيبال قرطاجنة فى عام ٢٠٢ ، فإنه دخل مدينة تكاد تكون غريبة عليه .

وكان هانيبال قد ترك من تبقوا معه من جنود فى ثكنات حضرموت عندما استدعاه مجلس مدينـــة قرطاجنة ، فأسرع بالحضور إلى المدينة التى لم تشهد شيئا من هول الحرب .

واضطر هانيبال أن يلعب دوراً مزدوجا مرة أخرى ، فقد كان سكان قرطاجنة يتطلعون إليـه باعتباره قائدهم القادر على إتيان معجزة تحررهم من شروط الصلح التى فرضت عليهم .

واستطاع هانيبال إقناع مجلس المدينة بقبول شروط الصلح . ولـكن بعض الأعضاء ذوى النفوذ ناصبوه العداء .

وبعد خمسة أشهر ، أى فى أوائل عام ٢٠١ ، تبادل الرومان والقرطاجنيون الأسرى ودفعت قرطاجنة تكاليف جيش سيبيو، ووقعت المعاهدة . وأقرها مجلس شيوخ روما . وعلى أثر ذلك رحلت الجيوش والأساطيل الرومانية عائدة إلى روما . .

وكانت نقطة طيبة من سيبيو حينما قال : إننى أترك لقرطاجنة الحدود التى كانت لها عندما نزلت أنا إلى البر لأول مرة . .

وحان موعد دفع القسط الأول من الغرامة وقدره ١٦٫٠٠٠ رطل من الفضة . ولم تكن قرطاجنة تملك هذا القدر من الفضة بعد أن انقطعت واردات قرطاجنة من هذا المعدن من جبال أسبانيا. وهنا لم يجد المجلس مفراً من فرض ضرائب غرامة أثارت ثائرة الكثيرين وجعلتهم يضمرون الشر لهانيبال ..

وقام هانيبال بحملة اصلاحية كبيرة كللت بالنجاح ، ولكنها أكسبته عداء الارستقراطيين .

ولم يعد الأمر مجرد معارضة لقطاع أسرة بارسا فى المجلس وإنما أصبحت المسألة مسألة خصومة عنيفة لديكتاتور . . ومن ثم أوفد أعداءه الجدد رسلا إلى مجلس شيوخ روما ليبلغوه إنه بينما

يسعى معظم أعضاء مجلس قرطاجنة للمحافظة على صداقة روما فإن هانيبال يسعى بطرقه السرية المعهودة على الاستعداد لاستئناف نزاعه الطويل مع المدينة التي أذلت عنقه . .

وصدق مجلس شيوخ روما القصة . . وفي عام ١٩٥ أوفد المجلس لجنة للتحقيق في الشئون الافريقية وتوجيه الاتهام لهانيبال . .

## هانيبال يركب البحر :

من عجب أن الصلح الذي أبرم في عام ٢٠١ وجد روما الظافرة غارقة في المنازعات بينما أصبحت قرطاجنة المهزومة حرة في تدبير شئونها . .

ولاشك في أن الجزء الأكبر في هذا التناقض كان مرجعه إلى الحرب الغريبة التي شنها هانيبال . . ففي غرب أمبراطورية روما الجديدة . استمر الاسبانيون في المقاومة والتمرد برغم الأحكام العرفية ، وفي الشمال راح الغال يكافحون للمحافظة على حدودهم القديمة .

بينما أخذت عصابات الليجوريين المتوحشين تعيث في الأرض

فساداً . ومما زاد الطين بلة أن ماجو كان قد ترك بعض ضباطه واسمه هاملكار فى إيطاليا ، فتولى هذا الضابط قيادة قوات المقاومة وعند ما طالب مجلس شيوخ روما مجلس قرطاجنة باستدعاء هـــذا الضابط أجاب المجلس بأنه لايملك أية وسيلة لاستدعائه . .

وعند ما عاد الأسرى الرومان من قرطاجنة ، وكان بينهم أعضاء من مجلس الشيوخ راحوا يهولون فى وصف حياة البذخ التى يحياها القرطاجنيون ، مما أثار ثائرة الرومان لأن الشعب الرومانى كان يعانى من شظف العيش آنذاك .

ولما كان معظم بحارة الأسطول قد استخدموا فى فلاحة الأرض أول الأمر ، ثم استدعوا ثانية للعمل فى الأسطول ، فقد قلت الأيدى العاملة ولم يعد مفر من استيراد الأرقاء للحلول محل الملاحين الذين أعيدوا إلى الأسطول . وكانت الوسيلة الوحيدة لذلك هى شراء الأرقاء من التجار ، أو شن حملة جديدة لجمع الأرقاء . .

وكانت أول خطوة طائشة أقدم مجلس شيوخ روما عليها

هى إرسال حملة لتأديب فيليب الخامس الذى تحالف مع هانيبال بعد معركة كاناى . .

وعارضت المجالس الشعبية الحرب المقدونية بشدة . نظراً لأن المواطن الأول سبيو لم يوافق عليها . .

ولكن مجلس الشيوخ ضرب بهذه المعارضة عرض الأفق ، وأرسل حملة مزودة بالفيلة التى أرسلت من إفريقيا لتأديب مقدونيا . .

ومن الغريب أن سبيو لزم الجمود التام خلال هذه السنوات الحرجة . وقد يكون التعليل الوحيد لذلك إنه كان مجهداً بعد حرب طاحنة دامت عشر سنوات أمام خصم عنيد هو هانيبال .

وكان سبيو لايزال راكناً للجمود عندما جاءت الأنباء عام ١٩٧ بحصول الرومان على انتصار عسكرى فى اليونان على جيش فيليب ، مقترنة بحدوث ثورة كبرى فى اسبانيا فقد تمرد سكان اسبانيا على الضباط الرومان، وعندما طالب القائد الرومانى فى شمال أبرو قبائل التروتان ومن معهم من الكات بتسليم أسلحتهم رفضوا ذلك . .

كان شبح هانيبال لايزال يحلق فوق اسبانيا . ولهذا استمر الاسبانيون فى العصيان . .

وفى أوائل عام ١٩٥، وبينما الموقف يغلى على النحو الذى بيناه ، وصل إلى روما وفد النبلاء القرطاجنيين الذى جاء ليقدم شكوى ضد الطاغية هانيبال ، فأوفد مجلس الشيوخ لجنة للتحقيق كما أسلفنا.

واحتج سبيو على هذا الاجراء العجيب بقوله : ليس من حق روما أن تتدخل فى شئون قرطاجنة الداخلية ، أو أن تقف إلى جانب من يكيلون الاتهامات لهانيبال :

ولكن المجلس أصر على قراره . فسافرت اللجنة ولكنها لم تجد هانيبال فى قرطاجنة .

* * *

والواقع أن هانيبال كان فى قرطاجنة يوم نزلت البعثة الرومانية إلى البر ، واستقبلت بأجلى مظاهر الترحيب . .

وفى الوقت ذاته ظهر هانيبال فى شوارع قطاع آخر من المدينة كالعادة . وفى المساء غادر قصره وانطلق فى إتجاه إحدى بوابات المدينة . وهناك ترك خادميه وامتطى صهوة الجواد الذى كان فى انتظاره هناك . ثم غادر المدينة وحيداً . .

وفى تلك الليلة ، وفى اليوم الذى أعقبها قطع هانيبال ١٤٠ ميلا إلى إحدى فيلاته على الساحل الشرقى تحت حضرموت . وكان

فى انتظاره أمام الفيلا من ناحية البحر زورق سريع وضعت فيه ثيابه وأمواله الشخصية من ذهب وفضة . . وفى التو أبحر الزورق ناحية الشرق . .

وأدهش فرار هانيبال مدينة قرطاجنة ، وتجمع الشعب فى بايرسا لمعرفة أنباء معبوده . . ولم تستطع اللجنة الرومانية أن تفعل شيئاً سوى أن تقول ، إن فرار هانيبال أثبت لها أنه كان يتآمر مع فيليب .

ولم يذكر هانيبال سبب رحيله عن قرطاجنة ، ولعله ضاق ذرعاً بخصومه النبلاء له ، وليس من شك فى أنه سمع بنبأ إيفاد روما بعثة التحقيق فلم يشأ أن يقف موقف الاتهام . وبالتالى لم يشأ أن يجعل شعب قرطاجنة ينشق على نفسه ، وآثر الرحيل.

وانتهى المطاف بهانيبال فى مسقط رأس أسرته : تاير .

## عروش الشرق الثلاثة :

بمجرد أن مرت سفينته بتلال كريت ألقى هانيبال نفسه فى بحر هادىء مرصع بالجزر ، لاتكتسحه الرياح ولا الزوابع التى ألفها فى غرب البحر الأبيض . وكان سكان هذه المنطقة مختلفين أيضاً عن سكان الغرب ، فقد كانت المدن القديمة . وكانت تاير نفسها مدينة جمة النشاط فوق جزيرتها الصغيرة ، وقد تحول سكانها إلى شعب من التجار لايبدون أى اهتمام بالسياسة إلا من حيث تأثيرها على تبادل النقد أو اتصالها به .

وحيا شعب تاير هانيبال بدهشة بالغة ، فقد كان اسمه من الأساطير التى شاعت على الساحل الشرقى . وبعد إقامة قصيرة ، عبر هانيبال إلى الشاطئ ، وهنا نزل فى موطن الفينيقيين أرض كنعان، وإلى اليسار كانت الأراضى الحمراء ذات الذكريات القديمة وكان الناس يرحبون بهانيبال اينما حل .. وامتطى جوادا سار به تحت مرتفعات لبنان الداكنة إلى نهر الأورنت ثم إلى بوابة انتيوخ . .

وما كاد يهل بطلعته فى انتيوخ حتى تجمع الناس للترحيب به كهدية بعثتها لهم الآلهة . ولمس أحد أبناء الملك الأرض أمامه ، ورافقه عازفو المزمار إلى القصر الذى أعد له .

نزل هانيبال فى بلاط انتيوخس العظيم ، أقوى ملوك العالم الهلينى الشرقى . .

كانت انتيوخ من المدن العظيمة التى انشأها الاسكندر المقدونى الذى مات قبل ذلك بقرن وربع وقد تجمعت فيها ثقافة الاغريق وحكمة آسيا ، فقطعت شوطاً بعيداً فى مضمار العلوم والفنون .

وكان الاسكندر قد خلف ثلاث ممالك سياسية بعد انتهاء امبراطوريته ، إحداهما فى مصر والأخرى فى سوريا — فارس ،

وإلى اليسار مملكة مقدونيا نفسها وما يتبعها من مدن يونانية هزيلة وكانت الممالك الثلاث لاتزال متشابهة من وجوه كثيرة — فى اقتصادها ومركزيتها الحضرية وزيادة ثرائها . وكانت ثلاثتها تتكلم اللغة اليونانية ، وتتنافس على التوسع فى نشاطها التجارى مما أدى إلى ارتفاع مستوى معيشة طبقاتها العليا ارتفاعاً كبيراً . وكانت هذه الممالك الثلاث تشتبك فى حروب محدودة وبالأخص عند الحدود المائية بالقرب من فلسطين وعبر مضيق الدردنيل وبين مدن اليونان المتنافسة . .

وما كاد هانيبال يصل إلى هذه المنطقة حتى فطن إلى كل شئ فيها ، فبالإضافة إلى هذه الممالك الثلاث الكبرى ، كانت الجزر الكبرى مثل رودس تحتفظ بأساطيل بحرية خاصة ، بينما احتفظ سكان الجبال أمثال الكلت والبيزنطيين فى آسيا الصغرى بعزلتهم

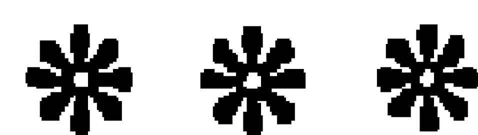
وأدرك هانيبال بثاقب بصيرته أن انيتوخس الثالث ملك سوريا — فارس هو أحسن حليف لقرطاجنة يمكن اختياره . فمنذ عشر سنوات عاد هذا الملك الشاب من غزوة عظيمة اكتسح فيها آسيا حتى وصل الى الجبل الذى يفصل المنطقة عن الهند . واحضر معه قطيعاً كبيراً من فيلة الحرب، وجيادا سريعة ، وعدداً

لايحصى من الفرسان .. وهكذا توفرت لانتيوخس الموارد التى كان تعوز هانيبال دائماً .

ولما كان انتيوخس طموحاً . فقد كان يتطلع للاستيلاء على الدردنيل فيما وراء آسيا الصغرى ، وإلى اليونان .. ولكنه رأى الرومان يسيطرون على منطقة اليونان ..

وهنا أبدى هانيبال استعداده لخدمة انتيوخس ضد روما . وكان الاثنان قد تراسلا قبل مجئ هانيبال .. وفى حديقة قصر الملك تبادل الاثنان الحديث ..

وكان هذا المكان هو آخر ما كان الرومان يرغبون فى أن يظهر هانيبال فيه ..



لما اشتدت حاجة روما إلى الأيدى العاملة جردت حملتها على مقدونيا، وبعد أن أحرزت النصر بدأت تتطلع إلى الشرق وكنوزه ولكنها سرعان ماتبينت أن انتيوخس يقف فى طريق توسعها .

أما ماهو السبب الذى تذرع به مجلس شيوخ روما لخلق سوء تفاهم مع الملك الآسيوى فغير معروف . فقد تذمرت ردوس

وبرجامم من أن وجود انتيوخس فى آسيا الصغرى معناه أنه سيستخدم آسيا الصغرى قاعدة لغزو إيطاليا ،وهى نفس الشكوى التى تذرعت بها المدينتان الصفيريان ضد فيليب .

وانتهزت روما الفرصة . . وبالأخص بعد أن تأكدت من متانة موقفها فى اليونان ، ذلك أن القائد الرومانى فلامينوس الذى هزم فيليب انتهج سياسة سبيو فرفض اذلال مقدونيا بعد القضاء على جيشها . وألقى خطابا منح فيه جميع المدن اليونانية حرية كاملة وقرن هذا التصريح بسحب الجيش الرومانى من الأراضى الرومانية ( والواقع أنه لم يفعل ذلك مختاراً وإنما لأن الحاجة مست إلى الاستعانة بهؤلاء الجنود فى زراعة أراضى وادى نهر بو ) . وكان لهذا الاجراء أثره فى نفوس اليونان فقدموا له جميع الجنود الذين سبق أن أسرهم هانيبال . وهكذا خلف انسحاب فلامينوس فراغا يملأه أى قادم . وكان من الواضح أن هذا القادم هو انتيوخس .

كانت خدعة ديبلوماسية ممتازة خدعت اليونانيين أكثر من غيرهم.فقد اسكرهم الحكم الذاتى تحت حماية الرومان الذين يملكون أعظم قوة حربية ؛ ومن الغريب أن أول من دعا انتيوخس للمجىء هم الاتيوليون الذين كانوا أول حلفاء الجمهورية الثانية ..

كانت روعة الفخ الذى نصبه فلامينوس ومجلس الشيوخ (أثناء انهما كهما فى جبهة نهر بو ) كامنة فى أنه كان فخاً غير منظور . .
فقد جمع انتيوخس قواته وتهيأ لغزو اليونان . وهو لايجد ذريعة يتعلل بها لهذا الغزو . . وهذا هو ما كان يترقبه الرومان .
وفطن هانيبال لهذا الفخ ، فقد سبق أن رآه فى أسبانيا ..
وكما كان الحال فى أسبانيا، فطن هانيبال لوسائل الدفاع الثلاث ضد تقدم الرومان: التحالف وهو فى هذه المرة مع الدول الهلينية وأسطول لحماية الطرق البحرية ، وحملة ضد ايطاليا ذاتها .. وليس من شك فى أن هذه الخطة كانت تصادف نجاحاً منذ أربع وعشرين سنة مضت لولا ما كان ينقص قرطاجنة من أسطول بحرى.. والآن كان ينبغى تنفيذ هذه الحركة سريعاً فى الطرف الاخر من البحر الأبيض إذا أريد لها النجاح . أى أنه كان على انتيوخس أن يضرب بكل قوة فى الوقت الذى تشتبك روما فيه فى قتال عنيف مع الغال على نهر بو، وتتأجج فيه ثورة الاسبان فيما وراء نهر ابرو.
وعرض هانيبال على انتيوخس قيادة الحملة . وطالب بقوة مكونة من ١٠٠ سفينة نقل و١٠٫٠٠٠ جندى و١٫٠٠٠ جواد على أن يذهب بالجميع إلى قرطاجنة ثم يمضى للانقضاض على إيطاليا بينما يتمم انتيوخس تحالفه الهلينى فى الشرق ..

وكان انتيوخس يصغر القائد العظيم بحوالى عشر سنوات ، ولكنه كان رجلا حاد الذكاء ، سريع البت فى الأمور . وكان قد تلقى إنذاراً نهائياً من روما تحذره فيه من أن يطأ أرض أوربا بقدميه وذلك على أثر استيلائه على بعض المدن اليونانية فى آسيا الصغرى ، وبرغم غضب انتيوخس فقد قرر الاستجابة للإنذار..

فلما أفضى هانيبال إليه بخطته فطن إلى مافيها من مزايا ، وفطن أيضاً إلى نتائجها : كان معناها شن حرب كبرى ضد روما ؛ حرب لم يكن راغباً فيها أو مستعداً لها

سأله هانيبال : هل سبق أن خطر ببالك مامعنى أن تصبح عدواً لروما ؟

وابتسم الملك انسورى ساخراً . . كان يعتقد أن البرابرة لن يستطيعوا الوصول إلى مملكته ، ثم أنه لم يكن يطمع فى شىء أكثر من أن يصبح سيداً على شواطىء اليونان الشرقية لأنه هو نفسه كان يونانياً

ومع أنه أقر خطة هانيبال إلا أنه تعمد التراخى فى الاستعداد لها . صحيح أن أسطوله البحرى كان عظيماً يرأسه بطل كبير هو بولكسينيداس على حين كان الأسطول الرومانى ضعيفاً بعد أن

سرح ملاحوه على أثر إبرام الصلح مع قرطاجنة .

وكلما مرت الشهور بغير أن يتم إعداد الحملة ازداد هانيبال غضباً وسخطاً .

وفى تلك الأثناء جاءت أنباء مشجعة : لقد أنزل الأميرال بولكسينيداس عقاباً شديداً بأسطول رودس المعادى بغير أن يتحرك الجيش والأسطولان الرومانيان .

ولكن هانيبال كان يوجس خيفة من صمت الرومان . وبالأخص عندما أبلغه تجار زيت الزيتون القادمين من صقلية أن سفناً حربية جديدة كانت تجىء من تارنتم وكروتونا - اللتين أصبحتا الآن حليفتين لروما - وذلك لتقوية الأساطيل التى تحرس صقلية (حيث كان هانيبال يعتزم الهجوم) وأن فرقاً جديدة من المشاة كانت تحرس السواحل المحيطة بمسينا . ومعنى ذلك أن الرومان بدأوا يستعدون لأية حركة يأتيها هانيبال نحو ميدان معاركه السابقة .

ووراء هذا الستار من الصمت والجمود ، كانت قوات العدو تتجمع . وكلما مر شهر حصل الرومان على مزيد من السلاح من أيدى الأسبان .

وتخلى هانيبال نهائياً عن حملته على إيطاليا ، ولو أنه كان لايزال

هناك وقت لتولى القيادة فى البحر الشرقى فى مياه بحر إيجا بعيداً عن ساحل أيونيان الهام . .

وفى ديلوس على بحر إيجا ظهر سبيو فجأة بدعوى أنه جاء فى رحلة للترفيه . . وحذر هانيبال انتيوخس - بناء على تجاربه السابقة - من أنه من العبث إرسال جيش إلى اليونان مالم يكن لاسطوله السيطرة على اليونان

فقال انتيوخس معترضاً : لم ير أحد أكثر من سفينتين هناك فكيف أطرد أسطولا لا وجود له ؟

وكان الملك قد ضاق ذرعاً بإلحاح هانيبال عليه فى الإسراع ..

وعلاوة على ذلك فقد بعثت روما حينذاك بوفد يحذر انتيوخس من الإقدام على أية خطوة معادية ، فاستدعى الملك مستشاريه .

وقرر المستشارون ضرورة تولى الملك نفسه قيادة الجيش .وقبل هانيبال أن يكون مستشاراً للحملة .

## كارثة فى ثرموبلاى :

وعبرت الحملة الآسيوية بحر إيجا إلى ميناء الصديق ديمترياس

قبل أن تهب عواصف خريف عام ١٩٢ . . وكان الأسطول كبيراً إلى درجة كافية ، ولكن عدد رجال الحملة لم يزد على ١٠،٠٠٠ رجل و ٥٠٠ فارس و ٦ فيلة . أما فى اليونان فكان فلامينوس مبعوث روما قد حصل على عهد من فيليب بأن يلزم الجمود ، أما الأسبرطيون الذين كانوا قد تمردوا عندما سمعوا بمجيء انتيوخس فقد سحقت ثورتهم ، ومن ثم لم ينضم إلى انتيوخس غير الانيوليانيين وكان عددهم حوالى ٤٠٠٠ رجل ، ومن ثم فإن جيش انتيوخس لم يكن كبيراً بالدرجة التى تمكنه من شن حرب على نطاق واسع

وفى إيطاليا أحرق القواد آخر مدينة لليجوريين ، وأرغموا البوى على الاستسلام ، بينما سحق الرومان الثورة فى أسبانيا حتى نهر التاج . وعندما انتهى فصل الشتاء استطاعوا إنزال جيش على الساحل الغربى لليونان بدون مقاومة

واختار هانيبال معبراً ضيقاً للدفاع ضد الطوابير الرومانية القوية . وكان المعبر واقعاً بين أحراش تمتد إلى الشاطئ والتلال المنخفضة ، ويطلق عليه ثرموبلاى . وأنشأ اليونانيون السوريون استحكامات للدفاع عبر قاعدة المعبر ، بينما تولى حلفاؤهم حراسة الطرق على التلال العلوية .

وقام الجيش الروماني بفحص المعبد ، ثم هاجمته بعض الفرق بينما تسلقت طوابير أخرى التلال لاقتحام خط الدفاع ولم تكد تنقضي ساعات قلائل حتى انتهى كل شيء ، وراح الفرسان الرومان يطاردون فلول السوريين حتى لا يتشكلون مرة أخرى .

وركب انتيوخس سفنه ومعه حوالى ٥٠٠ تابع وابحر إلى افسوس . .

اثارت معركة ترموبلاى هياجاً قليلا فى روما . ولكن مجلس الشيوخ قرر ، بعد أن استتب الأمر لروما فى أوربا ، أن يؤدب انتيوخس . وانضم سيبو للحملة الجديدة بوصفه مديراً للعمليات . وفى العجيب أن هانيبال كان السبب فى إستدعاء سيبو للخدمة من جديد .

واراد انتيوخس أن ينسى مأساة ترموبلاى عندما عاد إلى افسوس ، وظن إنه أصبح فى أمان بداخل جدران قصره المنيف وفى حدائقه الغناء .

واكد المستشارون لانتيوخس أن البحر كفيل باعاقة اعدائه عن المجىء وأن الرومان لن يستطيعوا أن ينقلوا جيشاً كبيراً عبر البحر . .

وسمع هانيبال هذا الحديث ، فلم يؤمن على أقوال المستشارين وقال : أن مايدهشنى أن الرومان لم يصلوا إلى آسيا حتى الآن . .

وصمت هانيبال لحظة . ثم ألقى القنبلة التالية ، وكانت مستقاة من المعلومات التى وصلت إليه :

إن أسطول الرومان يتجمع فى ماليا منذ أمد طويل ، بعد أن وصلت إليها سفن جديدة وتولى أمرها قائد جديد.

وأقلق ذلك بال انتيوخس، وسأل هانيبال أن كان يحبذ الدخول مع الرومان فى مفاوضات للصلح ، فقال هانيبال الآجدوى من ذلك الآن ، وأن هناك وسيلة واحدة لتأمين سلامة مملكة انتيوخس ، وتلك هى الحاق الهزيمة بالرومان فى البحر . .

ولأول مرة أخذ انتيوخس بنصيحة الرجل الذى كان يعرف أحسن من غيره كيف يشن الرومان حرباً . فأمر حظائر بناء سفن أثقل وأكثر ارتفاعاً ، ثم رحل شمالا لتعزيز استحكامات الشاطئ الآسيوى عند البسفور ، بينما رحل هانيبال جنوباً لحشد أسطول فى تاير .

إلا أن الأمل فى النجاح البحرى لم يلبث أن خبا فى مدى شهور قليلة ، لأن أساطيل الرومان البحرية مالبثت أن خرجت

إلى عرض البحر ، وانضمت إليها أساطيل رودس وبرجامم التى الحقت هزيمة كبيرة بأسطول انتيوخس من السفن الخفيفة. وحاصرت الأسطول السورى الرئيسى فى طرقات إفسوس. وأخطر من ذلك أن سبيو كان يزحف بقوات المشاة الرومانيين من اليونان إلى الدردنيل . ومع أن المعبر المائى هناك ضيق ، إلا أنه كان يستلزم وجود سفن لنقل الجنود وأخرى للحراسة . .

وفى تاير ، قرر هانيبال أنه لا يستطيع الانتظار أطول مما فعل. فقد بقيت فرصة أخيرة، وتلك أن يجمع السفن فى تايروطرسوس. ويقودها شمالا إلى افسوس لينضم إلى السفن الباقية من أسطول أنتيوخس ويهاجم الجميع أسطول الحصار الرومانى ، فإذا أمكن تدمير هذا الأسطول ، فقد يتمكن السوريون من الوصول إلى المضايق قبل سبيو وبذلك يحولون دون عبور جيش الرومان إلى آسيا .

## معركة بحرية :

سار هانيبال بالأسطول البحرى شمالا ، وكان قد صحب معه عدداً من ملاحى تاير المهرة ليوجهوه . وبعد أن مر الأسطول بتلال رودس ، دخل المياه المعادية واستعد للعمل بانزال أشرعته

وفى اليوم التالى التقى أسطول هانيبال بأسطول رودس لخف ملاقاته .

وراح هانيبال يراقب المعركة التى بدأت تدور بين الأسطولين بغير أن يعرف ماهى النتيجة التى ستسفر عنها .

واستطاع أسطول هانيبال أن يحدث ثغرة فى خط هجوم أسطول رودس . . ولكن ما أن انقضت ساعتان حتى بدأ اتجاه المعركة يتحول فى مصلحة الأعداء .

ولاحظ هانيبال أنه ليس بين الأسطول المعادى سفينة واحدة رومانية ، . وأن أسطول رودس كان يمتاز بخفة الحركة ومهارة ملاحيه . . .

وبعد ساعتين آخرين قال مرشدو هانيبال : يحسن أن تصدر الأمر بالانسحاب . .

وأومأ هانيبال برأسه دلالة على الموافقة .

فإذا جاء المساء تحول أسطول العدو مبتعداً بعد أن أنزل الهزيمة بأسطول أنتيوخس .

وفى أبيدوس سمع أنتيوخس بضياع أسطوله، فتخلى عن تعزيز

استحكامات الدردنيل ، إذ كان يعلم أن من العبث أن يبقى هناك في انتظار مجيء سبيو الرهيب تؤيده الأساطيل الرومانية الهائلة .

وهكذا عبر سبيو الدردنيل بفرقة بغير أن يلقى أية مقاومة .

ولأول مرة دخل الجيش الرومانى آسيا . وأخذ يتحرك ببطء إلى الجنوب ماراً باطلال طروادة ... وكان سلوك سبيو يتسم بالغرابة فى هذه الأثناء .

انتصار سبيو وسقوطه :-

برغم أن سبيو كان مستشاراً للحملة ، إلا أن حياته كانت تحمل - فى نهايتها - نفس طابع حياة هانيبال . . فمع أن سبيو كان شديد الطموح فى شبابه ، إلا أنه تخلى عن هذا الطموح فى المراحل الاخيرة من حياته .

كان سبيو يعتقد أن دخول الرومان إلى الشرق يجب أن يستهدف غاية واحدة هى المحافظة على الثقافة اليونانية .

فعندما عبر البسفور حرص على أن يقنع ملوك فارس والبومنة بالتزام الحياد . . ولعل سبيو كان متأثراً فى كل تصرفاته بفكرة واحدة ، تلك أن يحقق لروما لقب « حامية الثقافة الإغريقية » لا الدولة الفاتحة الغازية .

ولهذا عمد إلى إعادة ابن انتيوخس ـ وكان قد سقط أسيراً في المعركة البحرية ـ إلى أبيه بلا فدية .

ومع ذلك فانه أى سبيو لم يتخل عن مهمته كقائد فى حرب تشنهاروما

وبينما كان سبيو يزحف بجيشه شرقاً، بعث لأنتيوخس بشروط الصلح التى وضعها : تسليم آسيا الصغرى كلها حتى جبال طوروس ودفع تكاليف الحرب .

ونصح هانيبال الملك انتيوخس بقبول هذه الشروط .

ولكن الملك الشرقى المعتز بكبريائه رفض ذلك . . وعندما بدأ يتراجع جنوباراح يجمع المكوس فى آسيا توطئة لمواجهة الرومان وهنا بعث سبيو برسالة أثارت جدلا كثيراً فيما بعد. حث أنتيوخس ألا يشتبك فى القتال بأى حال من الأحـــوال إلا فى وجوده ـ أى سبيو .

ولم يعرف أحد حتى الآن ما الذى كان سبيو يهدف اليه من من هذه الرسالة الغريبة . . أما ماحدث فعلا فهو أن سبيو أصيب بالمرض واضطر إلى التخلف عن الجيش .

وتولى مساعده إدارة دفـــة المعركة التى دارت رحاها بعد ذلك ، ودارت الدائرة فيها على جيش أنتيوخس . .

وعلى أثر انتهاء المعركة ، كان هانيبال ، كسبيو ، بعيدان عن ميدانها . .

وهكذا انتهت الحرب . .

ورأى مجلس شيوخ روما أن الشروط التى عرضها سبيو على أنتيوخس - مخففة جداً . ومن ثم أضاف اليها شروطاً أخرى هى دفع غرامة قدرها ١٥٫٠٠٠ طن من الفضة ، وتسليم فرقة الفيلة مع التعهد بعدم شن أية حرب على الجبهة الغربية فى المستقبل بغير الحصول على موافقة مجلس الشيوخ ، كذا تسليم هانيبال . .

وفى عام ١٨٨ وافق انتيوخس على هذه الشروط ، فانسحب من ساحل البحر الابيض .

وحدث فى هذه الأثناء خلاف خطير بين سبيو ومجلس الشيوخ ، أدى إلى إنسحاب هذا البطل من الحياة العامة ، واعتكافه فيما يشبه المنفى الاختيارى .

وعندما ذهب الوفد الرومانى لاحضار هانيبال بعد ابرام الصلح مع انتيوخس ، لم يجد له أثرا فى تاير ولا فى افسوس . . فقد اختفى فجأة ليظهر فى جزيرة يحكمها القراصنة ، فذهب الوفد إلى هذه الجزيرة .

## نهاية البطل :

كان ينبغى أن تكون جزيرة كريت ملاذا آمناً لهانيبال لأنها بعيدة عن ميادين الخلاف والنزاع . .

وقد ذهب هانيبال إلى هذه الجزيرة ، واعتكف فى وادتحف به أشجار الزيتون حيث شيد عددا من المنازل حول معبدفى جورتانيا ولم يحاول هانيبال أن يخفى شخصيته برغم أنه كان يستطيع ذلك ، ولعله كان يسعى إلى مكان ناء منعزل يفكر فيه ، فيما سيفعله بعد ذلك .

وكان أهل جورتانيدا يذكرون هانيبال جيداً . . ولهذا رحبوا به واحسنوا معاملته . .

وقد وجد هانيبال كثيرين من الاسرى الرومان الذين باعوهم لتجار الرقيق بعد معركة كاناى وكانوا يفلحون الارض وهم مستسلمون لمصيرهم .

وقد حدث إن أسطول الرومان بدأ جولة تفتيشية على موانىء السواحل ، وجاءت سفينة من الأسطول إلى شواطىء كريت . وبينما كان قائدها يطالب برد الأسرى الرومان الموجودين بالجزيرة

أفضى اليه بعض الطامعين فى الثروة التى أحضرها هانيبال معه ، بوجود القائد القرطاجنى فى مدينة جورتانيا . .

وشعر هانيبال بالخطر فاختفى مرة أخرى . .

ترك هانيبال جزيرة كريت ، وانطلق هذه المرة إلى الشرق البعيد عبر المضايق إلى جزيرة مرمرة بعيداً عن مجال المشاة الرومان والأسطول الرومانى .

وأقام هانيبال فى منزل كبير بقريه ليبايسا ، وهى قرية يسكنها الصيادون ويوجد بها جبل أوليمبوس . .

وكان هانيبال يتجول بجوادهفى السهول المحيطة بالقرية، ويقضى معظم وقته فى القراءة .

كان بحر مرمرة من البحار ذات الأهمية فى التاريخ القديم نظراً لموقعه الجغرافى . . وكان الرومان يفكرون فى ذلك الحين فى تقديم يد المساعدة لعميلهم ملك برجامم عبر الجبال نظراً لأنه كان على خلاف دائم مع فارس . .

وأعد هانيبال كعادته الوسيلة السرية التى تكفل له الهرب عند الضرورة . .

كان منزله كبيراً ولكنه يكاد يكون مجرداً من وسائل الراحة وبه ستة أبواب . .

ولأول مرة لم يبذل هانيبال أية محاولة لمعرفة الأحداث التي تدور في العالم الفسيح ، وفيما عدا الخدم الذين كانوا يتولون العناية بشئونه ، لم يستقبل هانيبال أي زائرين .

وكتم ملك الجزيرة سر هانيبال ، إلا أنه جاء وقت استدعى فيه مندوبو الجزيرة إلى روما لايضاح سبب خلافهم مع برجامم التي أصبحت صديقة لروما حينذاك . . وأثناء المناقشة التي دارت بين الفريقين ؛ ذكر أحد أعضاء الوفد اسم هانيبال عفواً .

ونقل فلامنيوس النبأ إلى مجلس الشيوخ للمناقشة فيه . . وراح الأعضاء يتساءلون عن سبب وجود هانيبال في بثينيا ؟ لقد كانت شروط الصلح التي أبرمت مع أنتيوخس تلزم هذا الملك بتسليم هانيبال . .

وبعد مناقشة الموضوع عهد مجلس الشيوخ إلى فلامنيوس بالمطالبة بتسليم هانيبال له . .

وعند ما عاد الوفد إلى وطنه صحبه فلامنيوس مع بعض حرسه . وعلى أثر نزولهم إلى البر في نيكوميديا ذهبوا مباشرة

لمقابلة الملك بروسياس الذى كان قد استدعى خدمه وحرسه على عجل للترحيب بزائره القادم من روما ..

ورفض بروسياس تسليم هانيبال ، لأنه لاجئ لاذ به .. ولم يستطع فلامينوس أن يقنع بروسياس بتسليم هانيبال ..

وقال الملك : إذا أردت أن تأخذ هانيبال ، فعليك أن تفعل ذلك بنفسك ..

وعلى أثر انصراف فلامينوس ، بعث بروسياس ببعض حراسه المسلحين لحراسة جميـــع مداخل المنزل الذى يقيم هانيبال فيه .

وهناك رآهم أحد الخدم فابلغ هانيبال أن رجالا مجهولين مسلحين يقفون خارج أبواب المنزل . فذهب هانيبال إلى الباب الرئيسى ، وفى التو عرف أن هؤلاء الرجال من الحراس .

وعاد هانيبال إلى غرفة المائدة بعد أن عرف أنه أصبح محاصراً وطلب من الخدم أن يجيئوه بقدح من الخمر ..

وقال لنفسه : لقد حان الوقت لانقاذ الرومان من مصدر القلق الكبير الذى ظل يقض مضاجعهم سنوات طويلة ..

ومع الخمر ، شرب هانيبال السم الذى ظل يحتفظ به خلال السنوات الأخيرة .

وهكذا مات هانيبال فى عام ١٨٣ .

وفى السنة نفسها مات القائد سبيو بعد أن أعطى أمراً بأن يطفن خارج الأراضى الرومانية . .

وفى هذا كتب المؤرخ ليفى : وهكذا لم يكن سبيو على نفسه بالنفى فى الحياة فقط وأنا أيضاً فى الموت !.

---

# كتب ثقافيه

## صدر من هذه المجموعة

| رقم الكتاب | اسم الكتاب |
|---|---|
| ١ | حكايات جحا |
| ٢ | أحاديث جدتى |
| ٣ | وشم الورد |
| ٤ | كليلة ودمنة |
| ٥ | يحكى أن وقصص أخرى |
| ٦ | قصص من الشرق والغرب |
| ٧ | الفتوة |
| ٨ | فلاسفة وجوديون |
| ٩ | أبنائى جميعاً |
| ١٠ | المحاسن والاضداد ج ١ |
| ١١ | المحاسن والاضداد ج ٢ |
| ١٢ | مذاهب النقد الأدبى |
| ١٣ | فى المقهى ( وقصص جزائرية) |
| ١٤ | سحابة صيف |
| ١٥ | طبيب البيت |
| ١٦ | شهر العسل المر ج ١ |
| ١٧ | شهر العسل المر ج ٢ |
| ١٨ | نزوات ماريان |
| ١٩ | نهج البلاغة ج ١ |
| ٢٠ | نهج البلاغة ج ٢ |
| ٢١ | نهج البلاغة ج ٣ |
| ٢٢ | الصواريخ والأقمار وغزو الكون |

| رقم الكتاب | اسم الكتاب |
|---|---|
| ٢٣ | تليفزيون للجميع |
| ٢٤ | هنرى الرابع |
| ٢٥ | العالم المفقود |
| ٢٦ | رحلة إل القمر |
| ٢٧ | طبائع الاستبداد |
| ٢٨ | هكذا عشنا |
| ٢٩ | عبقرية محمد ج ١ |
| ٣٠ | عبقرية محمد ج ٢ |
| ٣١ | من قصص شكسبير |
| ٣٢ | ابن بطوطة ج ١ |
| ٣٣ | ابن بطوطة ج ٢ |
| ٣٤ | عبقرية الصديق |
| ٣٥ | صور ضاحكة من نوادر البخلاء |
| ٣٦ | العلم والتوكل (صور من علوم أحياء الدين |

| رقم الكتاب | اسم الكتاب |
|---|---|
| ٣٧ | دروس فى الحياة الزوجية |
| ٣٨ | الزهاوى شاعر الحرية |
| ٣٩ | محمد الرسول ج ١ |
| ٤٠ | محمد الرسول ج ٢ |
| ٤١ | أبو الشهداء «الحسين بن على» |
| ٤٢ | صور من الأدب الآسيوى |
| ٤٣ | محنة الفكر فى العراق |
| ٤٤ | أعلام المسرح الاوروبى |
| ٤٥ | فى ركب الكفاح |
| ٤٦ | حقائق أعجب من الخيال |
| ٤٧ | الحاج عباس وشركاه |
| ٤٨ | الإمامة والسياسة ج ١ |
| ٤٩ | الإمامة والسياسة ج ٢ |
| ٥٠ | الحركة الرو |
| ٥١ | روميو وجوليت |
| ٥٢ | اليونان أرض الفكر والتاريخ |

| رقم الكتاب | اسم الكتاب | رقم الكتاب | اسم الكتاب |
| --- | --- | --- | --- |
| ٥٣ | الشخصية العربية فى الأدب والتاريخ | ٥٩ | شعراء الحب |
| ٥٤ | بيراندللو | ٦٠ | الانسان العربى |
| ٥٥ | الحياة فى عهد الفراعنة | ٦١ | جاء الخريف |
| ٥٦ | الحاجة إلى الموت | ٦٢ | إبراهيم الكاتب |
| ٥٧ | أثر الترجمة فى حضارة العرب | ٦٣ | علماؤنا العرب |
| ٥٨ | معارك عربية | ٦٤ | الشاعر أبو تمام |

الدار القومية
للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة

# هيئة قناة السويس

## ماذا حدث عندما أغلقت القناة
## ١٦٥ يوماً فقط

تسبب إغلاق قناة السويس أيام العدوان الثلاثى لمدة ١٦٥ يوماً فى الاضرار الآتية للدول الغربية :

تحويل ٥٠ مليون طن بضائع عن مجراها الطبيعى ، إما بعدم نقلها مطلقاً من مكان إنتاجها إلى مكان استهلاكها ، أو بتأخير وصولها إلى مستورديها.

شح البترول ومشتقاته فى دول غرب أوروبا حتى اضطرت بعض البلاد إلى فرض قيود على توزيعه للأغراض الإنتاجية والاستهلاكية ووزعته بعض الدول بالكوبونات .

انخفضت احتياطيات كثير من الدول من الذهب والعملة الصعبة بسبب شراء البترول الأمريكى ، بدلا من بترول الشرق الأوسط

ارتفعت أسعار السلع بسبب تعطل شحنات الخامات والمواد الأولية المستوردة من الشرق ، فقد سجل معظم أنواعها نقصاً كبيراً عما كان عليه من قبل . كانت نسبة النقص فى القطن ٥٠٪ والمطاط ٤٥٪ والصوف ٤٥٪ والجوت ٣٨٪ والأسمنت ٥٢٪

ارتفعت نفقات المعيشة فى أغلب بلاد أوروبا .

تأثرت أسعار الأوراق المالية ولولا استئناف الملاحة بالقناة بعد ٥ أشهر لتحولت الأزمة الأوروبية إلى كارثة اقتصادية عالمية .

## روايات عالمية

تقدم يوم السبت القادم

١٧ ديسمبر سنة ١٩٦٠

# حبل المشنقة

للكاتب الانجليزى الكبير

رفاييل ساباتينى


الكتاب ٧٨ الثمن ٥ قروش

صدر يوم الخميس ١٥ ديسمبر ( كانون الاول ) سنة ١٩٦٠